14 me Année No. 665

Lundi—1—4—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٦٦٥ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٣٦٥ — أول أبريل سنة ١٩٤٦ » السنة الرابعة عشرة

الأمريكيون والأمريكيات

بتكلمون فى تعدد الزوجات والطلاق

للأستاذ عباس محمود العقاد

عرضنا فى كتابنا عبقرية محمد لمسألة تعدد الزوجات ، ولخصنا فى عدد ماض من الرسالة ما كتبه المصلح الهندى السيد محمد على عن هذه المسألة فى كتابه عن الإسلام والنظام العالمى الجديد ، وخلاصته « أن الإسلام يزكى وحدة الزوجة ويفضل هذا الزواج على كل زواج . إلا أن الشرائع لا توضع لحالة واحدة ، والدنيا كما نراها عرضة لطوارىء الشذوذ والاختلال ، ومن هذه الطوارىء ما ينقص الذكور عدة ملايين ويزيد الاناث بمقدار هذا النقص فى عدد الذكور ، فضلا عن الزيادة التى تشاهد فى عدد النساء من كل أمة على وجه التقريب فى غير أوقات الحروب . وإن تعدد الزوجات فى أمثال هذه الأحوال لخير من البغاء المكشوف . فقد قبلت المرأة الأوربية مشاركة الخليلات المعترف بهن وقبلت مشاركتهن فى الخفاء ، وأصبحت هذه المشاركة نظاما اجتماعيا مقررا لا معنى بعد قبوله وتقريره للاعتراض على تعدد الزوجات الشرعيات ، فهو على الأقل أصون للآداب وأكرم للنسل وأجمل بمنزلة المرأة من مهانة الابتذال ، وأصلح للاعتراف به فى علاقات المجتمع وقوانين الأخلاق » .

ولم يكد هذا المقال يظهر فى « الرسالة » حتى وصلت إلينا مجلة أمريكية حديثة من طراز جديد تسمى المساجلة أو المناقشة أو الحوار Debate وتدور على موضوعات اجتماعية أو سياسية تختلف فيها الآراء ، ويؤيد كل رأى منها فريق من الكتاب أو القراء ، ومن هذه الموضوعات موضوع الطلاق وتعدد الزوجات وهل الأفضل للمجتمع الانسانى أن نبيح تعدد الزوجات تجنبا للطلاق أو نبيح الطلاق تجنبا لتعدد الزوجات . فكان من الطريف حقا أن نطالع هذه الآراء كما تخطر عندهم للرجال والنساء والفتيان والفتيات . فإنهم فى الواقع يقدمون الوجهة « الذوقية » فى هذه المسألة على الوجهة الاجتماعية الخطيرة التى من أجلها توضع الشرائع وتسن المباحات والمحظورات ، ولكن الوجهة الذوقية مع هذا قد تتغلب فى أثرها على الوجهات الاجتماعية مع جلالة خطرها وضرورة النظر فى علاجها . لأن المعارضة فى تعدد الزوجات تفقد الكثير من أسبابها القوية إذا أمكن التغلب عليها من جانب الذوق والشعور .

قالت الآنسة فرانسين دوفال وهى ممن قبلن تعدد الزوجات : إنها تعرف فتاة صديقة لها طلبت الطلاق بعد زواجها بستة شهور ، لأنها علمت أن زوجها يغيب عن المنزل بعض الليالى ويعتذر بالاستعداد لامتحان الحقوق ، وهو فى الحقيقة يقضى تلك الليالى فى صحبة فتاة أخرى كان يعاشرها قبل الزواج ، وأن

الطلاق فى هذه الحالة أكرم الحلول فلا ملامة على الفتاة أن تطلبه ولا على الشريعة أن تنص عليه .

قالت : « وإننى وإن كنت أعتقد أن تعدد الزوجات يوافق الرجال أكثر مما يوافق النساء لأحسبه شيئا لا يخلو من الطرافة والغرابة . ولست من الطفولة بحيث يخفى على أن كواكب الصور المتحركة يعشقهم كثير من النساء ويعلمن وهن يعشقنهم أنهن لا يسيطرن على قلوبهم ومشيئتهم . ومهما يكن رأيك مثلا فى (إيرول فلن) فإنك لن تجهل الواقع الذى لا شك فيه من أمره وهو أن طائفة كبيرة من النساء يقبلن الشركة فيه . نعم ليس كل الرجال فى وسامة إيرول فلن أو فكتور ما تيور أو ڤان جونسون أو كلارك جابل ؛ ولكن الرجال الذين لهم نصيب من الوسامة والقسامة كثيرون فى كل مكان . فلماذا لا تشترك فى قربهم عدة نساء ؟ إنهن ينفردن فى الحجرات متى كبر الأطفال وتقدم السنون فتبرد حرارة الشباب وتهدأ حرارة الغيرة ولا يبعد أن يجد هؤلاء الشريكات مواطن للتسلية والمقارنة فى التحدث عن ذلك الرجل الذى ارتبطن به جميعا برابطة الزواج . ولقد عشت معظم أيامى فى ضاحية مدينة كبيرة فلا أحسب صديقاتى إلا مستغربات عاتبات لو أصبح من حظى غدا أن أكون واحدة من هؤلاء الزوجات المشتركات . ولكن هب الرجل كان مليح الشمائل قادرا على إيوائنا جميعا ألا يخطر لك أن اللاغطات بحديث زواجى يلغطن إذن من الغيرة لا من الانكار ؟ » .

وكتبت آنى هتشنسون وهى زوجة لها ولدان — فقالت إنها نشأت فى ولاية (أوتاه) التى أقام فيها المورمون الذين يدعون إلى تعدد الزوجات ، وأنها قضت فى عشرة زوجها أربع عشرة سنة ولا ترى للزوجة أن تطلب الطلاق إلا إذا آمن زوجها بمذهب تعدد الزوجات !.

وقالت : « ما من امرأة ولدت فى هذه الدنيا الحديثة ترضى أن تشاطرها أخرى فى حقوق فراشها إلا إذا كانت قد أضاعت صوابها . وهذه كلمة مكشوفة لا مراء . ولكنها هى أهم ما تفكر فيه رأة حين يذكر لها تعدد الزوجات . ثم ما ذا يقول الأطفال إذا فارقهم « بابا » ليلتين أو ثلاث ليال أو أكثر من ذلك ليذهب إلى زوجاته الأخريات ؟ » .

وكتب جوزيف ماردفلد — وهو من المشتغلين بدراسة علم الأجناس والسلالات — فاستحسن تعدد الزوجات وغلب عليه حكم الصنعة فملل استحسانه بالفائدة العلمية التى يجنيها الإنسان من هذه التجربة الضرورية إذا صرفت إلى غايتها الصحيحة . فنأخذ رجلا قويا ذكيا وسيما ونراقب نسله من عدة نساء مختلفات النماذج والأخلاق ، ونستخلص من ذلك أصدق المبادىء الصالحة لتحقيق الكمال المثالى فى القران بين الذكور والإناث . أما الطلاق فهو لازم للفصل بين الزوجين كلما ظهر النقص فى شروط القران واستحال التوفيق بينهما على النحو الذى ينفع الذرية ونوع الإنسان . ويرى هذا الكاتب أن تجربة المورمون فى القارة الأمريكية قد أسفرت عن نجاح لاريب فيه وأنجبت فى اقليم أوتاه جيلا من أصحاء الرجال والنساء صمدوا للمقاومة التى كانت تحيط بهم من كل صوب ، وذللوا الصعوبات التى أقامها لهم رجال الدين وغيرهم من أعداء تعدد الزوجات .

* * *

وأنكر فرانك شيهان تعدد الزوجات كما أنكر الطلاق لأنه لا يريد أن ينفصل ما عقده الله ليبقى منعقدا مدى الحياة . وحاول أن يملل إنكاره بعلة اجتماعية فقال إن السماح بتعدد الزوجات ظلم للطبقات الفقيرة ، لأن إيواء الزوجة فى العصر الحاضر يكلف الزوج نفقات لا قبل بها للفقير بغير جهد جهيد . فكيف بالزوجات المتعددات ؟ وكيف نستخدم القانون لتمييز طبقة واحدة من طبقات المجتمع وحرمان سائر الطبقات من هذه المزية ؟ .

قال : « ولنتكلم بعد هذا عن الحياة اليومية التى يحياها رجل يجمع بين زوجات متعددات ، ولنقدر أنهن لا يمشن تحت سقف واحد بل فى حجرات متقاربات . ولنتخيل الزوجة رقم (١) حين تنظر إلى النور موقدا فى مسكن الزوجة رقم (٢) ثم ينطفىء النور ساعة الرقاد . أين يا ترى يكون الزوج هذه الساعة ؟ أعند هذه الزوجة أم عند الثانية أم عند الأخرى ؟ ... » .

* * *

وعلى هذا المثال تبدى الآراء فى هذه المسائل الجلى فيثبت للناظر فيها شىء واحد على الأقل وهو أن المعارضة فى مذهب تعدد الزوجات لا تستند إلى سبب أخطر من سبب « المزاج » كما يصح

نظرة لمعركة عين جالوت

وقتل قائد التتار كتبغا في ٢٥ رمضان ٦٥٨ هجرية

للأستاذ أحمد رمزي

[ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين] قرآن كريم

قلت مرة لصاحب من إخواننا الذين يغلب عليهم التشاؤم « إن في الكون قوات طبيعية هائمة لا تلبث أن تصيب الرجل الذي اختارته العناية لعمل عظيم ، فيستفيق من غشيته متنبهاً ليقبض على تلك القوى الضائعة ويجمعها ويحشدها ويحركها ويقودها ببصيرته وعزيمته وجرأته ، ليغير معالم الأشياء فيخلق من الجمود حركة ومن الخمود حياة ومن التسليم أملا ، ويحوّل مجرى التاريخ ليكتبه كما يشاء . هؤلاء الرجال الأفذاذ كثيرون في تاريخ الإسلام ، كانوا كالصخور الصلبة التي تواجه السيول ، وكانوا كالسدود الضخمة التي تحوّل مسير المياه إلى جهات ونواح غير التي كانت تقصدها بدفعتها الأولى » .

« وأعرف في تاريخ مصر العربية معارك كثيرة ومواقف خالدة كانت كالسدود العالية تصد حوادث الزمن وتقارع نكبات الدهر لتتغلب عليها : ولكنني أعرف منها معركتين فاصلتين يجب أن يعرفهما كل واحد منا لأنهما مفخرة لنا ولآبائنا ولأجدادنا ، وقعت كل منهما في أرض فلسطين الشهيدة ، في الجزء الشمالي منها أي على مقربة من بحيرة طبرية ، تلك البحيرة التي أعدها وما حولها بقعة من أجل بقاع الأرض ، أما أولى المعركتين فهي معركة حطين ، وأما الأخرى فهي معركة عين جالوت . كان بطل الأولى سلطاننا صلاح الدين وكان صاحب الأخرى سلطاننا الشهيد المظفر قطز ، ففي الأولى تحطم ملك أورشليم وفي الأخرى تحطمت أطماع هولاكو في فتح مصر ، وفي الأولى ظهرت مزايا جند مصر وعسكرها على فرسان أوروبا ، وفي الأخرى انتهت خرافة العهد

أن تعبر عن أشباه هذه الأسباب .

فالدواعي التي تلجىء المشترع إلى إباحة تعدد الزوجات عند الضرورة التي تسوغه أخطر جدا من هذه الموانع التي تساق لحظره على النحو الذي أجملناه فيما تقدم . فهذه الزوجة التي يخشى عليها الكاتب الأخير من وساوس الغيرة هل يظنها تنجو من هذه الوساوس إذا كانت السهرة التي يغيب فيها زوجها قد انقضت في الحانة أو الماخور أو في الأندية التي لا فرق بينها وبين الحانات والمواخير ؟ أو هل تنجو من هذه الوساوس إذا كانت السهرة مع زوجة رجل آخر يخونها في تلك الساعة كما تخونه لأنهم جميعا لا يستسهلون الطلاق ؟

إن الذين يبيحون تعدد الزوجات لا يبيحونه لأنه حسنة مشتهاة ولا لأنهم يفضلونه على الاكتفاء بالزوجة الواحدة متى تمت شروط الوفاق والعشرة الدائمة بين الزوجين ، ولكنهم يبيحونه لأن السيئات التي تبيحها الحضارة أبغض منه وأولى بالمحاربة والانكار ، ويعلمون أن كرامة الزوجة التي تشاركها في رجلها زوجة أخرى أعز وأوفر من كرامة الخليلة التي يعترف بها المجتمعات الأوربية والأمريكية ولا تحسب لها حسابا في الشرائع والقوانين غير حساب التهاون والاغضاء .

ولعل هذه الأجوبة التي قدمناها لا تشتمل على جواب هو أولى بالتدبر وإطالة الروية من جواب الفتاة التي قالت إن النساء لا يرفضن المشاركة في الرجل الوسيم القسيم وإنهن إذا لفطن بحديث هذا الزواج فأغلب الظن أنهن يلفطن من الغيرة لا من الإنكار .

فهذه فتاة من بنات العصر الحديث في القارة الامريكية موطن الحرية النسائية التي جاوزت جميع الحدود ، كشفت عن دخيلة شعورها فإذا هو ينم على حقيقة المانع النفساني الذي يجنح بالمرأة إلى التأفف من المشاركة في المعيشة الزوجية ، وإذا هو مسألة استحسان للزوج الذي يستحق هذه المشاركة لا مسألة كرامة أو مسألة من مسائل العقيدة والروح .

ونحسب أن الأجوبة الصريحة التي من هذا القبيل أجدى من الفصول المنمقة والمباحث المتعمقة في الإبانة عن مركز المرأة الصحيح من مسائل الزواج والطلاق .

عباس محمود العقاد

من أن جيش المغول لا يغلب ، فغلب وهزم وتشتت شمله ، وظهر أن الدماء التي تجري في عروق الآباء والأجداد ، أقوى وأمتن وأثبت من الدماء التي تجري في عروق فرسان أوربا وزمازمها من الاستبار[1] والداوية ، وعلم الناس والعالم بأكمله والأجيال السالفة واللاحقة أن صلاح الدين وقطز هما من رجال الله » .

فاذا فتحت خريطة لفلسطين الشقيقة ، فابحث عن بيسان ، تجدها تحت جسر الجامع جنوبي بحيرة طبرية وتطل على وادي نهر الأردن ، وعلى اليسار وادي جالوت حيث كانت تقع بليدة باسم عين جالوت ، ففي هذه الناحية ومنذ سبعمائة وسبع سنوات ، التقى جيش مصر بقيادة سلطانها الملك المظفر قطز مع جيوش المغول ودارت بينهما معركة هائلة فاصلة ، وكان مجيء المغول من الشمال حيث أراضي البقاع الخصبة — بقاع العزيزي المشهورة — وهي الواقعة الآن داخل حدود الجمهورية اللبنانية . وكان مجيء جيش مصر من القاهرة إلى الصالحية إلى غزة إلى الرملة ثم عكا ثم إلى المصاف بعين جالوت .

ولما التقى الجمعان كتب الله النصر للمسلمين فسجد ملك مصر المظفر قطز شكراً لله ومرّغ وجهه في تراب الأرض ، أما قائد المغول فكان اسمه كتبغانوين ، وقد قتله بطعنة واحدة أمير من أمراء مصر هو جمال الدين أقوش الشمسي . وكتبغا اسم تتري مركب من كلمتين قيل إن معناه الثور الذي يدهشك أو يدعو للدهشة أو يثير الإعجاب ، وكان أولى أن يسمى بالثور الهائج . ونوين قيل في معناه قائد العشرة آلاف ؛ وجندهم كما نعلم تتحرك بالآلاف وعشراتها .

وصفه الشيخ قطب الدين اليونيني فقال « رأيته ببعلبك حين حاصر قلعتها وكان شيخاً حسناً له لحية طويلة مسترسلة قد ضفرها مثل الدبوقة ، يعلقها من خلفه بأذنه ، وكان مهيباً شديد السطوة » دخل الجامع[2] ، وصعد المنارة ليتأمل القلعة ومن فيها من جنود الإسلام ، قال : « خرج من الباب الغربي ودخل دكانا خربا وقضى أمراً والناس ينظرون إليه » ثم أردف ذلك بقوله :

ولما بلغه خروج العساكر المصرية حار في أمره ماذا يفعل ولكن حملته نفسه الأبيّة على اللقاء وظن أنه منصور على جاري عادته ، فحمل يومئذ على الميسرة فكسرها ثم أيّد الله المسلمين وثبتهم في المعركة » وجاء النصر من عنده تعالى .

وجيء بالأسرى وبينهم ابن القائد المظيم فأخذه الملك المظفر قطز وسأله : « أهرب أبوك ؟ » . فأجاب : « إن مثله لا يهرب » . وعرضت القتلى فتعرف الابن على أبيه وصرخ باكياً ، فعلم المظفر بموته وسجد لله شكراً مرة أخرى .

وكان المغول يؤمنون بعبقرية كتبغا ويستبشرون به خيراً ، إذ هو الذي أخضع البلاد لهم من حدود فارس الشرقية إلى حدود الشام ، ولما قتل ذهب سعدهم ، وألف قوادهم الهزيمة واعتاد رجالهم الفرار . وكانوا يعتقدون بالتنجيم والعرافة ، ذكر ابن الفرات في تاريخه أن هولاكو ملكهم لما دانت له الدنيا بفتح بغداد واستيلائه على العراق وحلب وامتلاكه دمشق ، حدث نفسه أن يقهر الديار المصرية ويفتحها ويطأها بجنده .

قال : إنه أحضر نصير الدين الطوسي وقال له « اكتب أسماء مقدمي الجند وانظر أيهم سيملك مصر ويجلس على تخت السلطنة » فكتب أسماءهم وحسب ودقق النظر فما ظهر له أن يملك مصر غير رجل اسمه كتبغا فذكر ذلك لهولاكو وكان اسم صهره كتبغا نوين فسلّمه قيادة جنده وسيّره لفتح مصر وكان مقتله في عين جالوت » بعد أن أدرك أيام جنكيزخان وحارب تحت قيادته وقاد جحافلهم إلى النصر طول أيام هولاكو .

وإني لأتخيل كتبغا هذا على صورة « تاراس بولبا » في القصة الروسية رجلا جباراً عملاقاً مهيب الطلعة يلبس البنطلون التتري وقد استبدل بالشاربين الطويلين المنحدرين على كتفيه باللحية الطويلة التي وصفها الشيخ قطب الدين والتي كان يعلقها على أذنيه لإرهاب الناس وقذف الرعب في قلوبهم .

ومن الغريب أن يكون بين عسكر المغول فتى لا يكاد يدرك سن البلوغ واسمه كتبغا أيضاً فيؤخذ أسيراً ويربى بقلعة مصر ويطلق عليه اسم زين الدين ، ثم يؤمّر في عهد المنصور قلاوون ، ثم يستقر في نيابة السلطنة بالديار المصرية ، وأخيراً ينادى به سلطانا فتصح النبوءة المذكورة بعد ست وثلاثين سنة من معركة عين

(١) الاستبار Hospitaliers والداوية أو الهيكليون Templiers وهم منظمات صليبية لقتال المسلمين .

(٢) هذا الجامع البعلبكي للأسف خرب اليوم وإن كانت أعمدته باقية كما هي .

جالوت التي أخذ فيها من بين الأسرى .

ويصح أن نشير هنا إلى ما ابتدعه المغول في فن الحروب وما أدخلوه من التغيير في كيفية ترتيب الجنود والزحف وتسوية الصفوف لأنه ابتداء من جينكيزخان . اتجه هؤلاء إلى ضبط الزحف بعشرات الآلاف من الرجال وإلى توجيه ضربات حاسمة من عدة جهات بطرق وأساليب لم تخطر على بال هنيبال ولا الاسكندر الأكبر وغيرهما من كبار قواد العالم . وهذا ما سنعرض له إن شاء الله في دراسة حملات جنجيز وأولاده وأثرها في التربية العسكرية بمصر وفي عقلية كبار قواد الدولة المصرية وملوكها وما أخذوه من الأنظمة عنها ، ولا أترك هذا دون أن أعطي فكرة أولى عما ابتدعه كتبغا نوين من أساليب الحروب وخداعها لأنه من تلاميذ مدرسة جنكيزخان في هذه الناحية .

فقد نقل صاحب البداية والنهاية أنه كان يعتمد في حروبه للمسلمين أشياء لم يسبقه أحد إليها ، فكان إذا فتح بلداً ساق مقاتلة هذا البلد إلى البلد الذي يليه ، فكان هؤلاء اللاجئون يدخلون في هروبهم الخوف والرعب على الناس . وإذا دخلوا البلد شاركوا الناس في أقواتهم ، فاذا حاصرهم تقصر مدة الحصار عليه لاضطراب شؤون التموين والاعاشة لدى البلد الذي يقصده ، وإذا رفض أهل البلد قبولهم وإيواءهم ساق هؤلاء المقاتلة اللاجئين عليهم لقتالهم وتلقي الضربات الأولى ، وحينما يضعف الطرفان يقذف بجنوده لاتمام الفتح.

ومن حيله التي لا يمكن أن تقرها قوانين الحرب أن يبعث إلى المدينة المحاصرة من يقول : إن ماءكم قد قلَّ بعد طول الحصار وإنّا على وشك أن نأخذكم عنوة فنقتلكم جميعاً ، أما إذا فتحتم صلحاً أبقينا عليكم فيغتر أهلها بذلك ويقولون إن الماء عندنا كثير فلا نحتاج إلى ماء فيقول الرسول لا أصدق حتى أبعث من عندي من يشرف عليه فان اقتنعت بأنه كثير انصرفت إلى بلد آخر . فيقولون ابعث من يتأكد ، فيرسل رجال من جيشه معهم رماح مجوَّفة محشوة سماً ، فاذا دخلوا المدينة التي أعيته الحيل في فتحها لعظم أسوارها وقلاعها أدخلوا في آبارها وصهاريجها تلك الرماح على أنهم يقيسون أعماق المياه فيقذفون السم في قاع المياه ويكون سبباً في هلاك كل من يشرب منه .

ولو شئنا أن نعدّد أساليبهم في القتال وطريقتهم في ابتداع الحرب الخاطفة والهجوم في جهتين تفصل الواحدة عن الأخرى مئات الأميال لتبين لنا أن آسيا هي أم الحروب وأن الأوروبيين لم يبتدعوا شيئاً جديداً . ولقد أجمع المؤرخون على مقتل كتبغا في عين جالوت ، وذكر القريزي أن رأسه حُمل إلى القاهرة ، ولذلك تعجبت حين اطلعت على حاشية للاستاذ الدكتور مصطفى زياده تقول « إن السلطان كتبغا كان تتري الأصل وهو الذي قاد الجيوش التترية التي انكسرت على يد السلطان قطز » . إذ هناك إجماع على مقتل قائد التتار وعلى اسم قاتله وهو الأمير جمال الدين الشمسي وكان من أعيان الأمراء المصريين وأماثلهم وشجعانهم ، ذكره صاحب النجوم الزاهرة في المنهل الصافي ضمن وفيات ٦٧٨ وذكره ابن كثير ضمن وفيات هذه السنة فقال « إنه أحد أمراء الاسلام وهو الذي باشر قتل كتبغانوين » . أما القريزي فيقرر وفاة الشمسي سنة ٦٧٩ وهو الأصح إذ كان آخر عمل له أنه تولى نيابة السلطنة المصرية بمدينة حلب عن السلطان المنصور قلاوون وتوفي ودفن بها كما جاء ذلك في أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، وكان قبل ذلك نائباً لسلطان مصر بمدينة دمشق وهو الذي قبض بها على الأمير عز الدين إيدمر الظاهري حينما توقف عن البيعة للمنصور قلاوون ، ويدل تاريخه على الهيبة ووفرة الحرمة والوقار والنفوذ التي كان يتمتع بها لدى ملوك مصر نظراً لأياديه البيضاء في معركة عين جالوت وأن هذه الهيبة كان يتمتع بها حتى مماليكه بالقاهرة وهو غائب عنها لما كان أميراً بالشام . فقد قبض الملك الظاهر بيبرس على عدة من أمراء مصر بدمشق ولما وصل إلى جمال الدين الشمسي لم يجسر أن يقبض عليه بل تركه على حاله ومات رحمه الله في الخمسين من عمره .

فلا محل إذاً لكي تختلط شخصية كتبغا نوين مع العادل زين الدين كتبغا وإن تشابها في الاسم . وقد ورد في السلوك أنه في سنة ٦٧٨ أنعم المنصور قلاوون على أربعين من رجاله فرفعهم إلى مرتبة الأمراء وذكرهم واحداً واحداً بالاسم ، وكان منهم زين الدين كتبغا وسنجر الشجاعي وأغلب المؤرخين يقررون أنه أخذ أسيراً في عين جالوت وهوشاب وإن كان البعض اشتبه عليه نسبته إلى المنصور بقوله المنصوري فظن أنه أخذ أسيراً من يوم معركة حمص (رجب ٦٧٨) فيكون بين أخذه أسيراً وتعيينه

من غَزَل الفقهاء

للأستاذ علي الطنطاوي

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

واسمع يا سيدي أنشدك ما يحضرني من غزل الفقهاء ، لا أستقصي ولا أعمد إلى الترتيب ، وإنما أروي لك ما يجيئني ، وما يدنو مني مصدره .

هذا أبو السعادات أسعد بن يحيى السنجاري الفقيه الشافعي المتوفى سنة ٦٢٢ هـ فاسمع من شعره ما ترقص منه القلوب ، وتطرب الألباب : حلاوة ألفاظ ، وبراعة معنى ، وحسن أسلوب ، قال من قصيدة له :

وهواك ما خطر السلو بباله ولأنت أعلم في الغرام بحاله
ومتى وشى واش إليك بأنه سال هواك فذاك من عذاله
أو ليس للكلف المعنى شاهد من حاله يغنيك عن تسآله
جددت ثوب سقامه ، وهتكت ستر غرامه ، وصرمت حبل وصاله
أفزلة سبقت له أم خلة مألوفة من تيه ودلاله

وهذا الإمام الصوفي عبد الله بن القاسم الشهرزوري الملقب بالمرتضى أفما قرأت قصيدته :

لمت نارهم وقد عسعس الليل ومل الحادي وحار الدليل

التي لم يقل في معاني أهل الطريق مثلها ، والتي تطاول بها أعلى شعراء (الرمزية) منكباً ، وتسابق بها أوسعهم خطوة[1] ؟

أو ما سمعت شعره ؟ هاك منه قوله :

فعاودت قلبي أسأل الصبر وقفة عليها فلا قلبي وجدت ولا صبري
وغابت شموس الوصل عني وأظلمت مسالكه حتى تحيرت في أمري

وهاك قول ظهير الدين الأهوازي الوزير الفقيه ، تلميذ أبي إسحق الشيرازي[2] :

---

(١) تجدها كاملة في ترجمته في الوفيات ، وتجد بعضها في المنتخب من أدب العرب لمدارس مصر .

(٢) الوفيات ٢ — ٩١

أميراً أقل من سنة ، وهذا لا يمكن وقوعه نظراً لما تطلبه الجندية الإسلامية في مصر من تهيئة واستعداد وتدريب ، ولا يتحقق ذلك إلا بعد سنوات طويلة .

والعادل كتبغا رجل من أعاظم رجال القرن السابع والقرن الثامن الهجري ، وقد وفاه المؤرخون حقه أيام توليه السلطنة ، وبعد عزله منها وإقامته أميراً بالشام وهو الذي قضى على الفتن عند مقتل الأشرف خليل ، ووطد أركان الملك للناصر محمد وهو في العاشرة من عمره ، وقد بدأ حياته وهو على دين التتار ، وأسلم وحسن إسلامه ، وقال عنه صاحب الدرر الكامنة « كان قليل الشر يؤثر أمور الديانة شجاعا مقداما سليم الباطن رفيقا بالرعية »

وفي عهد سلطنته لجأ إلى مصر آلاف من بلاد التتار وهم الاويراتية فسكنوا بالقاهرة واختلطوا بأهل البلاد . ولما عزل من السلطنة تولى قلعة صرخد ثم نائبا بمدينة حماة ، وفي أثناء نيابته بها هجم التتار على الديار الشامية في عام ٧٠٢ لحضر الجهاد وهو محمول على محفة لمرضه وكبر سنه وهذه نهاية ما يمكن أن يصل إليه الإيمان وكان ذلك في معركة «شقحب» التي ساهم فيها شيخ الإسلام ابن تيمية وحرض فيها جيوش المسلمين على القتال .

وفي يوم الجمعة الموافق يوم عيد الأضحى من تلك السنة توفي العادل زين الدين كتبغا التتري الأصل وهو مسلم ومؤمن ونقل إلى التربة التي بناها بسفح جبل قاسيون بمدينة دمشق غربي الرباط الناصري رآها ابن كثير وقال « هي تربة مليحة ذات شبابيك وبوابة ومئذنة وله عليها أوقاف للصرف على وظائف من قراءة وأذان وإمامة » وختم بقوله « كان من خيار الملوك وأعدلهم وأكثرهم براً وكان من خيار الأمراء والنواب رحمه الله » .

وانتهت حياة الشاب التتري الذي جاء محاربا للاسلام والمسلمين فأصبح مجاهداً في سبيل الإسلام والمسلمين فأعطى مثلا لقوة الإسلام وعظمته وأثره في شؤون الكون وكيف ينقلب أعداؤه فيصبحون سيوفا يذودون عنه وأنصاراً يقاتلون في سبيله .

أحمد رمزي

القنصل العام السابق لمصر بسوريا ولبنان

وإنى لأبدى فى هواك تجلدا   وفى القلب منى لوعة وغليل
فلا تحسبن أنى سلوت فربما   ترى صحة بالمرء وهو عليل

وقول أبى القاسم القشيرى الإمام الصوفى العلم :

لو كنت ساعة بيننا ما بيننا   ورأيت كيف نكرر التوديعا
لعلمت أن من الدموع محدثا   وعلمت أن من الحديث دموعا

والبيت الثانى من مرقصات الشعر .

وكان مع ذلك علامة فى الفقه والتفسير والحديث ومن فقهاء الشافعية الكبار ، وهو صاحب الرسالة التى يمتدها الصوفية ككتاب سيبويه عند النحويين ، ولا ينصرف الإطلاق إلا لها ،

ومن شعره :

ومن كان فى طول الهوى ذاق لذة   فإنى من ليلى لها غير ذائق
وأكثر شىء نلته من وصالها   أمانى لم تصدق كخطفة بارق

ومن شعر القاضى عبد الوهاب المالكى الفقيه المشهور المتوفى سنة ٤٢٢ والمدفون فى قرافة مصر ، وصاحب الخبر المستفيض لما خرج من بغداد وخرج أهلها لوداعه وهم يبكون ويعولون وهو يقول : والله يا أهل بغداد ، لو وجدت عندكم رغيفا كل يوم ما فارقتكم . ويقول :

سلام على بغداد فى كل موطن   وحق لها منى سلام مضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها   وإنى بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على بأسرها   ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخل كنت أهوى دنوه   وأخلاقه تنأى به وتخالف

ويقول فيها :

بغداد دار لأهل المال طيبة   وللمفاليس دار الضنك والضيق
ظللت حيران أمشى فى أزقتها   كأننى مصحف فى بيت زنديق

وهو معنى جيد وتشبيه عجيب .

وهو القائل :

متى يصل العطاش إلى ارتواء   إذا استقت البحار من الركايا
ومن يثنى الأصاغر عن مراد   وقد جلس الأكابر فى الزاويا
وإن ترفع الوضعاء يوما   على الرفعاء من إحدى الرزايا
إذا استوت الأسافل والأعالى   فقد طابت منادمة المنايا

ومن غزله الذى يتنزل فيه بلغة الفقه والقضاء ، فيأتى فيه بالمرقص المطرب قوله :

ونائمة قبلتها - فتنبهت   وقالت تعالوا واطلبوا اللص بالحد
فقلت لها إنى (فديتك) غاصب   وما حكموا فى غاصب بسوى الرد
خذيها وكفى عن أثيم ظلامة   وإن أنت لم ترضى فألفا على العد
فقالت قصاص يشهد العقل أنه   على كبد الجانى ألذ من الشهد
فباتت يمينى وهى هميان خصرها!   وباتت يسارى وهى واسطة العقد
فقالت ألم تخبر بأنك زاهد ؟   فقلت : بلى مازلت أزهد فى الزهد

وهناك القاضى الجرجانى مؤلف (الوساطة) على بن عبد العزيز الفقيه الشافعى ، الذى ذكره الشيرازى فى طبقات الفقهاء[1] ، صاحب الأبيات المعلمة المشهورة :

يقولون : لى فيك انقباض ، وإنما   رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم   ومن أكرمته عزة النفس أكرما
وما كل برق لاح لى يستفزنى   ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
وإنى إذا ما فاتنى الأمر لم أبت   أقلب طرفى إثره متندما
ولكنه إن جاء عفواً قبلته   وإن مال لم أتبعه لولا وربما
وأقبض خطوى عن أمور كثيرة   إذا لم أنلها وافر العرض مكرما
وأكرم نفسى أن أضاحك عابسا   وأن أتلقى بالمديح مذمما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم   ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا   محياه بالأطماع حتى تجهما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة ؟   إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما

وياليت كل عالم ينقش هذه الأبيات فى صدر محرابه ، وعلى صفحة قلبه ، ويجعلها دستوره فى حياته ، وإمامه فى خلائقه !

والأبيات الأخرى :

وقالوا : توصل بالخضوع إلى الغنى   وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبينى وبين المال شيئان حرما   علىّ الغنى : نفسى الأبية والدهر
إذا قيل هذا اليسر أبصرت دونه   مواقف خير من وقوفى بها العسر

وله فى هذا المعنى الشعر الكثير الجيد ، أما غزله فسهل حلو منه قوله :

مالى ومالك يا فراق   أبداً رحيل وانطلاق
يا نفس موتى بعدهم   فكذا يكون الإشتياق

وقوله :

قد برح الحب بمشتاقك   فأوله أحسن أخلاقك

(١) الوفيات ١ — ٤٠٨ .

لا تجفه وارع له حقـــه فإنه آخـــر عشـاقك

وهاك القاضي سوار (الأصغر) بن عبد الله من أهل القرن الثالث الذي يقول :

سلبت عظامي لحمها فتركتها عواري في أجلادها تتكسر
وأخليت منها مخها فكأنها أنابيب في أجوافها الريح تصفر
إذا سمعت باسم الفراق ترعدت مفاصلها من هول ما تتحذر
خذي بيدي ثم اكشفي الثوب فانظري بلى جســدي لكنني أتستر !
وليس الذي يجري من العين ماءها ولكنها روح تذوب فتقطر

وهاك قاضي القضاة ابن خلكان المشهور ، وكان يعشق الملك المسعود بن الظفر ، وكان قد تيمه حبه ، قال القاضي التبريزي : كنت عنده في العادلية (دار المجمع العلمي اليوم) في بعض الليالي ، فلما انصرف الناس من عنده قال لي : نم أنت ههنا . وألقى على فروة ، وقام يدور حول البركة ، ويكرر هذين البيتين إلى أن أصبحنا فتوضأنا وصلينا ، والبيتان هما :

أنا والله هـــالك آيس من سلامتي
أو أرى القـامة التي قد أقامت قيـامتي

ولما فشا أمره ، منع الملك ابنه من الركوب ، فاشتد ذلك على ابن خلكان ، فكان مما قال :

إن لم تجودوا بالوصال تعطفاً ورأيتم هجري وفرط تجنبي
لا تمنعوا عيني القريحة أن ترى يوم الخميس جمالكم في الموكب
لو كنت تعلم يا حبيبي ما الذي ألقاه من كمد إذا لم تركب
لرحمتني ورثيت لي من حالة لولاك لم يك حملها من مذهبي
ومن البليـة والرزية أنني أقضي ولا تدري الذي قد حل بي
قسما بوجهك وهو بدر طالع وبليل طرتك التي كالغيهب
لو لم أكن في رتبة أرعى لها العهد القديم صيانة للمنصب
لهتكت ستري في هواك ولذ لي خلع العذار ولو ألح مؤنبي
لكن خشيت بأن يقول عواذلي قد جن هذا الشيخ في هذا الصبي
فارحم فديتك حرقة قد قاربت كشف القناع بحق ذياك النبي
لا تفضحن بحبك الصب الذي جرعته في الحب أكدر مشرب

وله فيه شعر كثير جدا .

ومن شعر محمد بن داود الظاهري ، وكان فقيهاً على مذهب أبيه داود وكان شاعراً :

أنزه في روض المحاسن مقلتي وأمنع نفسي أن تنال محرما
وأحمل من ثقل الهوى ما لو انه يصب على الصخر الأصم تهدما

ومن شعر أبي الفضل الحصكفي (١) الفقيه الشافعي :

أشكو إلى الله من نارين : واحدة في وجنتيه وأخرى منه في كبدي
ومن سقامين : سقم قد أحل دمي من الجفون وسقم حل في جسدي
ومن نمومين : دمعي حين أذكره يذيع سري وواش منه بالرصد
ومن ضعيفين صبري حين أبصره ووده وبراه الناس طوع يدي

* * *

ولو ابتغيت الاستقصاء ، وتتبعت المراجع ، لجمعت من غزل الفقهاء كتابا ، فأين بعد هذا يزعمون أن الفقهاء كرهوا الشعر ، وتنزهوا عنه ؟

أما إنها لم تفل ألسنة علمائنا ، ولم تكل أقلامهم ، ولم تخفت أصواتهم ، إلا حين أضاعوا ملكة البيان ، وزهدوا في الأدب ، وحقروا الشعر ... فهل لعلمائنا عودة إلى ما هم أخلق به ، وأدنى إليه ، وأقدر لو أرادوه عليه ؟ !

وردت في المقال المنشور في العدد الماضي كلمتان في أبيات سعيد بن المسيب على غير وجههما الصحيح وهما :

وعلت فتات المسك ، وقامت ترائى يوم جمع ، وصوابهما : وعالت ، وتراءى .

علي الطنطاوي

(١) نسبة إلى حصن كيفا في العراق ، وأظنه هو المعروف اليوم بتل كيف والتحقيق عند صديقنا الأستاذ المزاوي .

هذا هو الريف :

بعثة طبيــــة ... ! (*)

للأستاذ سـيد قطب

« إلى المترفين فى المدينة أولئك الذين يتشدقون بإصلاح الريف وهم لا يدرون شيئاً عن هذا الريف »

كانت الساعة تقارب العاشرة صباحاً ... كانوا قد تلقوا الدرسين الأول والثانى فى مدرسة القرية ، ثم انطلقوا ... انطلقوا من الفصول كالعصافير الحبيسة حينما تنطلق من القفص بعد حبس طويل ، انطلقوا يقفزون ويركضون ، ويزعقون ويتصايحون ، لغير ما قصد ولا غاية إلا تأكيد شعورهم بأنهم طلقاء بعد الحبس الطويل !

ثم لكى يفرغوا لنقل ما تحمله جيوبهم من بعض الأطعمة إلى بطونهم ، فلقد حملوه نحو ساعتين ، ولكن « النظام » فى الفصل لم يكن ليسمح لهم بعملية تفريغ الجيوب !

ثم لكى ينصرف أبناء الأغنياء منهم إلى « عشة عم خليل » بائع القصب والبلح ، فيشتروا منها بمليم !

ولم تكن هذه كل قيمة « الفسحة » ، فلقد كان لهؤلاء الأطفال مآرب فى تلك الفسحة القصيرة — ربع الساعة — لقد كانت المدرسة فى طرف القرية على حدود الحقول الواسعة . وإذا كانت وظيفة الحقل أن ينبت للناس وللماشية الحبّ والأبّ ، فلقد كانت له وظيفة أخرى عند تلاميذ المدرسة ، وعند غيرهم من سكان القرية ... إنه يقوم لهم بوظيفة المراحيض العمومية !

انطلق التلاميذ إذن فى كل مكان يفرغون ما تحمله جيوبهم فى بطونهم ، وما تحمله بطونهم فى الحقول القريبة ... ولكنهم فوجئوا بجرس المدرسة يدق دقاً عنيفاً متواصلا قبل الميعاد المقرر للحصة الثالثة .

وانتظموا صفوفاً بعد قليل ، ولم يسمعوا تلك النداءات المعهودة التى يؤدون على أساسها بعض الحركات الرياضية الساذجة ، ولكنهم سمعوا ناظر المدرسة يلقى عليهم خبراً غريباً عجيباً لم يسمعوا به قبل الآن ... إنهم الآن ذاهبون إلى « دُوّار العمدة » ، وسيسيرون فى الطريق بنظام . وكان هذا يقتضيهم أن يقطعوا شوارع القرية كلها تقريباً ، فدوار العمدة فى أقصى الطرف الآخر من القرية ، والناظر يحذرهم من الإخلال بالنظام فى أثناء السير ، والالتفات إلى اليسار أو إلى اليمين ، وبخاصة عند مرورهم « بسويقة القرية » ، حيث يعرض القصب والبلح والتفاح البلدى الفج !

يذهبون إلى دوار العمدة ؟ ولماذا ؟ وهم لم يدخلوا هذا الدوار قط ، وإن سمعوا من آبائهم وأهليهم أنهم يذهبون فى بعض الأحيان ، عند ما يستدعيهم أحد الخفراء ، أو لأداء شهادة ، أو للشكوى من بعض الفلاحين ... أما هم ... هم تلاميذ المدرسة ، فما لهم وكل هذه الأشياء ؟

وكان هو جريئاً بعض الشيء على ناظر المدرسة ومدرسيها ، فاستطاع أن يسأل : ولماذا نذهب إلى دوار العمدة ؟ سأل ، وياليته لم يسأل ! لقد كان الجواب كارثة عظمى لم تخطر له ولا لزملائه على بال .. إن « الحكيم » هناك — أى الطبيب — وهو يطلبهم جميعاً !

الحكيم ؟ يا للداهية ! اليوم دنت آخرتهم ولاشك ، فعهدهم بالحكيم هذا ألا يزور القرية إلا فى يوم أغبر أكدر ، يوم يقع فى البلد قتيل ، ثم تحضر « النيابة » ، ويحضر معها الحكيم لتشريح الجثة !

والنيابة والحكيم هذان هما الشيئان الهائلان المخيفان فى القرية كلها . أما فى أذهان الأطفال ، فهما « هيولى » لا يتصورون لها شكلا ولا حجما ، فخيالهم الصغير يستطيع أن ينطلق فى تصورهما كيف شاء ، ولكنه لن يميزهما بحدود مما يميز الأشخاص والأشياء .

ثم ها هو ذا الحكيم يطلبهم ، يطلبهم هم بالذات ، فما ذا يكون الأمر ؟

إنهم لا يعرفون لماذا يطلبهم مطلقاً ؛ ولكنهم واثقون

(*) فصل من كتاب (طفل فى القرية) يظهر فى أول أبريل .

فى قرارة نفوسهم أنه لن يكون خيراً ، وأنهم لن يخرجوا من الدوار — إذا خرجوا — وهم سالمون مثلما دخلوا بحال من الأحوال !

وما وظيفة الحكيم ؟

أليست وظيفته أن يشرّح جثث الموتى ، وأن يبقر بطون المصابين ، أو يقطع أيديهم وأرجلهم لمجرد الإيذاء ، أو لكى يفحمها ويلتذ بفحصها ؟ أو أن يسقى بعض المرضى « الفنجان » — أى السم — ليموتوا ، حتى لا يتعب فى علاجهم ، أو تلبية لرغبة العمدة الذى يرشوه للتخلص من خصومه الذين يصابون فى الحوادث !

فما هم وهذا الحكيم ؟

إنهم ليسوا قتلى يشرحهم ، وليسوا مصابين بقطع أوصالهم ، أو يسقيهم « الفنجان » ... ولكن ، أو يستدعيهم إلا لأمر ما ؟ أخف شىء يصنعه بهم هو « التجريح » ... (وهو الاصطلاح الذى يطلقونه على عملية التطعيم) ، تلك العملية المرعبة التى يندب لها بعض معاونى الصحة ، وبعض المرضين فى الحين بعد الحين ، فتروّع القرية ترويعاً ... وما إن يعلن أن فى البلد « الحكيم الصغير » (تمييزاً له من « الحكيم الكبير » الذى يطلبهم الآن والذى يرافق النيابة دائماً ولا يحضر منفرداً) ما إن يعلن هذا فى القرية حتى ترتج وترتجف ، فتخرج الأمهات إلى الشوارع مولولات مذعورات يلتقطن أطفالهن من كل مكان فى ذعر وعجلة ، ثم يغلقن على أنفسهن الأبواب ، ويصعدن إلى السطوح استعداداً للقفز عليها من بيت إلى بيت ، فكثيراً ما يدق هؤلاء الشياطين الأبواب ، ويكسرونها بمساعدة الخفراء ، ويهجمون على من فيها « للتجريح » !

فأما من تستطيع القفز إلى البيوت المجاورة ، فلن تقصر فى سلوك طريق النجاة ، وأما من لا تستطيع ، فإنها تختبئ فى صومعة الغلال ، أو فى خم الدجاج ، حيث لا يخطر على قلب « الحكيم » أنها هناك !

هذا هو الحكيم الذى يعرفونه ... فما بالهم بالحكيم الكبير الذى لا يحضر إلا مع النيابة ، والذى لا يقع أحد فى يده ، ثم ينجو إلا بمعجزة من معجزات القدر ، أو ببركة « تميمة » لولى من كبار الأولياء ، ؟ !

وارتجفت مفاصلهم جميعاً وهم يسمعون الخبر الفاجع ، واصفرت وجوههم ، وعلا صوت بعضهم بالنحيب والعويل !

* * *

ووصلوا إلى الدوار ، ولا يعلم إلا الله كيف وصلوا . ووقفوا صفاً طويلا . أوله فى داخل الدوار — أى فى منطقة الخطر — وآخره فى الشارع أمامه ... وعن اليمين وعن الشمال وقف الخفراء ببنادقهم « ولبدهم » الطويلة (جمع لبدة) ؛ ووقف أحد المدرسين فى أول الصف وأحدهم فى آخره . أما الناظر فقد سبقهم إلى الحكيم ليطمئنهم قليلا ، ويظهر أمامهم بمظهر الشجاعة المطلوب!

وكان ترتيب الصف حسب الطول ، فتقدم كبار التلاميذ وتبعهم الصغار أو القصار . وفى هذه اللحظة أصبح القصر نعمة كبرى من نعم الله !

فأما الذين تقدموا فلا يعلم عنهم أحد شيئاً إلا الله ، وأما المتخلفون فهم فى تطلع مستمر وقلق دائم ، ينظرون ماذا سيفعل بأول الداخلين ، ليعرفوا نوع المصير الذى ينتظرهم بعد حين !

وكانت مفاجأة حينما بدأ بعض الكبار يخرجون ، بينما بقية الصغار لا يزالون فى الصف الطويل ... وانبعثت الصيحات والأسئلة التى لم يستطع كبحها الخفراء ولا المدرسون :

— دخلتم للحكيم ؟

— نعم دخلنا !

— وماذا صنع بكم ؟

— لا شىء ! غزّنا فى إصبعنا بالدبوس وشفط الدم !

الدم ! ولكن رؤيتهم لهم أحياء أصحاء مطمئنة على كل حال !

— وماذا هذا فى أيديكم ؟

— حق من الصفيح نأتى فيه بعينة براز وزجاجة صغيرة نأتى فيها بعينة بول !

— عينة براز وعينة بول ؟ ولماذا ؟

— لا ندرى ! هكذا طلب منا الحكيم !

— الحكيم نفسه طلب منكم هذا ؟

— لا ... الحكيم الكبير غزنا . والحكماء الصغيرون سلمونا الحق والزجاجة وطلبوا منا العينة للحكيم !

* * *

وتوارى الفزع قليلا ليحل محله التساؤل المصحوب بالدهشة والاستغراب لهذا الطلب الغريب !

إن أحداً لم يطلب منهم مثل هذا الطلب من قبل . وماذا يصنع الحكيم بهـذه العينات العجيبة ؟ إنهم إن فهموا غزهم بالدبوس وشفط الدم ، فإنهم لا يفهمون طلب العينات . إن الغز والدم لازمتان طبيعيتان للحكيم ... ولـكن هذا ! من يدرى ؟ إنه الحكيم !

وعلى سهولة الطلب ورخصه فإنه بدا صعباً عزيزاً فى كثير من الحالات ... لقد طلب إليهم جميعاً أن ينطلقوا إلى دورات المياه بمساجد القرية ، وأن يعودوا بعد نصف ساعة ومعهم المطلوب .

وليس كل تلميذ بمستعد لتلبية هـذا الطلب فى مثل هذا الوقت ، ولا سيما أن « الفسحة » المدرسية كانت قد أفرغت ما فى البطون ... لو كان هذا قبل الفسحة لكان كل شىء حاضراً وبخاصة إحدى العينتين التى لا تأتى هكذا عند اللزوم !

فأما الذين كان فى أمعائهم بقية فقد انطلقوا مطمئنين ، وأما الذين أحسوا أن أمعاءهم لا تستجيب لهم ، أو حاولوا ولم يفلحوا ، فقد علا وجههم الاصفرار ، وارتفعت دقات قلوبهم من الخوف ، وركبتهم الحيرة التى تركب المذعورين !

ماذا يصنعون ؟ وكيف يعودون إلى الدوار ، أو كيف يغيبون عن الموعد المرسوم ؟

إن أقل ما يتصورونه إن هم عادوا فارغين أن يبقر الحكيم بطونهم ليتناول منها العينة المطلوبة أو أن يدخل فى أجسامهم قنوات طويلة لسحب هذه العينة . وفى الأولى الموت أو خطر الموت ، وفى الثانية العار أمام إخوانهم وعند القرويين !

وهنا تتفتق الحيلة ، وتبدو قيمة التعاون !

إن التلاميذ لإخوة ، فمتى تظهر قيمة هـذه الأخوة إن لم تظهر الآن ؟!

لقد انطلق المحرجون يرجون إخوانهم أن يمدوهم بمونهم ، وأن يتولوا عنهم ملء هذه الأحقاق !

وهنا تظهر الطبائع على حقيقتها . فالشدائد هى أفضل محك لها ! فأما ذوو الأصل الطيب والطبع النبيل من التلاميذ فقد تقدموا لمعاونة زملائهم بلا تردد . وأما قليلو الأصل وذوو الطبائع اللئيمة ، فبعضهم امتنع شفاء لحزازات قديمة ، وبعضهم تمنع لؤما وانتهازاً للفرصة !

ولـكن هذا التعاون لم يسد الحاجة إلا إلى حدّ معين ، وبقى عدد من الإخوان الذين لا يجدون ما ينفقون ! ... وهنا تفتقت عبقرية أحدهم عن حيلة بارعة :

إن فى مراحيض المساجد متسعاً للجميع !

أما كيف كان ذلك ! فلا بد من بيان عن هذه المراحيض : كان فى القرية نحو عشرة مساجد مبنية كلها على الطراز العتيق . وكانت دورات المياه بهـا عجيبة . فهى مؤلفة من « مغطس » هو حوض مبنى من الطوب ومطلى بالسمنت من الداخل والخارج ، يملؤه عامل خاص ، يمتح بالدلو من البئر ويصب فيه حتى يمتلئ . وفى الحائط الخارجى للمغطس ركبت صنابير تصل من البناء مباشرة إلى الماء بداخله . ومنها يتوضأ المصلون .

ولـكن المغطس لا يستخدم فقط للوضوء . إنمـا هو الحمام المختار لعدد كبير من الناس الذين يعوزهم الماء فى بيوتهم للغسل ، فيذهبون إليـه فى جنح الظلام قبيل الفجر ، حيث يتسورون حائطه ، ويرفعون غطاءه الخشبى ، ثم يغطسون ، فينقّون أجسامهم من الأوضار المادية والمعنوية ، ويدعونها هناك للمتوضئين !

ويلحق بدورة المياه المراحيض ، وبناؤها عجيب . فهى تقع فى صف طويل ، يفصل بين كل اثنين منها حائط ؛ ولـكنها من الداخل متصلة بقناة مكشوفة يجرى فيها الماء للجميع من منفذ فى الحوائط الفاصلة بسعة القناة . وتملأ هذه القناة بالماء من البئر كما يملأ المغطس ومن هذا الماء الجارى المتصل ، يتناول المصلون وغير المصلين للاستنجاء بأيديهم ، وهم داخل المراحيض ، والماء يجرى ويتصل بالجميع !

أما بناء المراحيض ذاتها فأعجب . فالمرحاض يتكون من

« كنفين » يجلس فوقهما من يريد . وبينهما فجوة واسعة تضطر الجالس إلى أن يباعد مابين رجليه كى لا يسقط فى الفتحة الكبيرة. فى هذه الفتحة يتساقط ما يتساقط ، فيتراكم قريباً من الجالس . لأن خزانات المساجد محدودة ، والعدد الذى يتردد عليها ضخم جداً — إذ ليس فى المنازل مراحيض إلا نادراً — وجميع الرجال والأولاد الكبار يلجأون إلى المساجد والحقول . أما النساء والأطفال ففى سطوح المنازل متسع للجميع !

وتبقى هذه الحالة طوال السنة ، والرائحة التى لا تطاق تنبعث من هذه المراحيض المكشوفة ، والمواد النازلة على مرأى من الجالس لقضاء الحاجة ، والبعوض يتبادل مواقفه تارة على هذه المواد المكشوفة ، وتارة على وجوه الجالسين ، فإذا خلت منهم المراحيض أخذ طريقه إلى المصلين وإلى البيوت المجاورة جيئة وذهابا حيثما يريد !

وفى موعد خاص يستقدم « السُّرَباتِيَّة » أى الذين يكسحون المجارير . يستقدمون من المدينة القريبة بمقاولة خاصة لنزح خزانات مسجد أو عدة مساجد ، ولهذا النزح طريقة عجيبة .

إن العربات الخاصة لم تكن تستخدم هناك على النحو المتبع فى بعض المدن الخالية من المجارى . وما الداعى لهذه العربات ؟ وهناك طريقة طبيعية مقتبسة من البيئة الزراعية ؟ !

ألا تستخدم القنوات فى الحقول لنقل الماء من مكان إلى مكان ؟ فلماذا لا تستخدم كذلك فى نقل هذه المواد من المجارير إلى الحقول ؟ !

ألا إنها لتستخدم ! فما هو إلا أن تحفر قناة مكشوفة من المسجد الذى يراد كسح خزاناته إلى الحقول خارج القرية ، وتمر هذه القناة بالبيوت والحوانيت فى وسط الشارع ، ثم يربط جردل بحبل ويعلق هذا ببكرة ، ويقف عاملان يتناوبان فوق الخزان ، يملآن هذا الجردل من الخزان ويصبانه فى أصل القناة وبعد هنيهة يجرى التيار حاملا كل شىء إلى الحقول المحظوظة بهذا السماد الطبيعى الثمين !

هذا ويتفق أن تكون عدة مساجد متفرقة فى القرية فى حاجة إلى التطهير ، فتوفيراً للقنوات المتعددة ، توصل قناة بقناة ، وإذا بالقرية كلها شبكة واحدة من القنوات المتصلة ... وعلى سكان البيوت والحوانيت أن يتمتعوا بالمنظر الفذ والرائحة القوية أسبوعا أو أسبوعين ... فتلك بيوت الله ، ولا يجوز أن يتأذى أحد من فضلات المصلين !

* * *

قرب المواد المطلوبة فى فتحات هذه المراحيض العجيبة ، هو الذى فتق الحيلة البارعة التى نبتت فى ذهن هذا التلميذ العبقرى !

وما إن طلع بها على إخوانه الملهوفين ، حتى طلع عليهم الفرج بعد الضيق ... وماهى إلا دقائق حتى كانت الأحقاق كلها مليئة ، فتسلمها الحكماء فى اطمئنان عميق ... وسمح للتلاميذ بإجازة بقية اليوم ، فعادوا إلى منازلهم غير مصدقين !

* * *

وعلم فيما بعد أنها كانت بعثة طبية للقيام بإحصاء طبى عن حالات الانيميا والبلهارسيا والانكلستوما والإسكارس .

ولكنه لم يعلم كيف كانت النتائج التى دونتها البعثة فى إحصاءاتها الرسمية الوثيقة !!!

سيد قطب

مدينة الأوقاف

تشهر وزارة الأوقاف بيع حوالى ١٨٧ ألف متر مربع صفقة واحدة من أرض مدينة الأوقاف الجديدة على شارع الخديوى اسماعيل بالدقى بثمن أساسى جنيه وأربعمائة مليم للمتر المربع ويدخل ضمن المساحة الشوارع الداخلية وبشرط أن يتحمل المشترى نفقات أعمال المجارى ورصف الشوارع الداخلية وكذلك الشوارع المحيطة بهذه الأرض وستعقد جلسة المزاد فى إدارة المدينة بديوان الوزارة فى الساعة العاشرة من صباح الإثنين ٨ أبريل سنة ١٩٤٦ . ويمكن الاطلاع على الخرائط والشروط بإدارة المدينة بالوزارة . ٣٨٧

الأدب فى سير أعلامه :

ملتن ...

[القيثارة الخالدة التى غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال ...]

للأستاذ محمود الخفيف

— ٦ —



وبينما كان يتكلف ملتن المرح ، ويستجيب لدواعى الشباب فيغنى أنغام الحب ، كانت نفسه تنطوى على معان غير هذه هى فى الواقع أرب مشاعره ومهتجع خواطره ومتجه خياله ؛ فتراه ينظم قصيدة استهلها بقوله « إيه يالغة قومى » أشار فيها إلى رغبته فى التخلص من اللعب واللهو وعبر عن عظيم طموحه فقال إنه يفضل أن يتخذ لغة قومه سبيلا إلى موضوع أخطر شأنا فيستخدمها إذ يسمو عقله حتى يبلغ أسباب السموات فيطلع إلى الآلهة وهم منصتون إلى ما يترنم به أبولو ؛ ثم يغنى هو بدوره فينبىء عن الأشياء الخفية التى وقعت ولم تزل الطبيعة فى مهدها .

وهكذا يصور له كبرياء عقله موضوعا عظيما لشعره فيتخيل وهو دون العشرين ملحمة كونية تدور على خلق الدنيا وتكشف عن أغراض الدين وعن وظيفته فيها ؛ وما يرتضى طموحه موضوعا أقل من هذا ، ولا تقنع فطرته الشاعرة ولا عبقريته الباكرة بما يقنع به غيره من الشعراء فيتملق خياله بأعظم ما يتملق به خيال وأعمقه ، وماذا وراء الخليقة والآلهة فى مسارح الذهن ومطارح الخيال ؟ وإنا لنلمح فيما يطمح إليه صورة مبهمة غامضة للفردوس المفقود ، ونراها هنا إغريقية الأشباح أولمبية الآلهة ، فهل كان يفكر الشاعر الناشىء منذ ذلك العهد فى آيته الكبرى ويريد أن يتخذ من ميثولوجيا الأغريق مادتها ولباسها ؟ ذلك ما لا نستطيع الجزم به ؛ على أننا نجزم فى هذا الصدد بأن الشاعر كان يومئذ يشغل باله ويهجس فى نفسه موضوع عريض فخم ، ولسوف نرى أن هذا الموضوع لن يبرح يطرق خياله ويهز نفسه حتى يتغنى بالفردوس المفقود ...

وإنه ليرتفع بشعره إذا تناول أمراً يتصل بالدين ، فيمد جناحى عبقريته ويرتفع ويحلق فى أفق لم يكن ليبلغ فى العلو مثله فى غير ما يتصل بالدين ؛ نجد مثلا رائعاً لذلك فى أنشودته الجميلة النبيلة التى نظمها سنة ١٦٢٩ وهو فى الحادية والعشرين من عمره فى عيد ميلاد المسيح وسماها « أنشودة فى صباح الميلاد » وهى إذا نظرنا إلى سنه وقتئذ جديرة بالاعجاب حقاً ، تستحق ما نالت يومئذ من عظيم الثناء ويستحق صاحبها ما اكتسب من ذيوع الصيت ونباهة الإسم . ولقد أحس كل من قرأها أنه تلقاء روح عبقرية وثابة غلابة تملأ النفس شعوراً بتكامل القوة وإعجابا بروعة الفن وافتتانا بسحر الخيال . هذا إلى براعة الموسيقى وسمو اللحن وجلال الفكرة ، ولعلها فى زعم بعض مؤرخى الأدب أجمل أنشودة فى بابها فى اللغة الانجليزية كلها .

تخلص ملتن فى هذه الأنشودة من تأثير أوفيد ، وما عسى أن توحيه أوصافه وصور جماله من فتنة وإغراء ، وأراد أن يلبس معانيه لباساً روحانياً طهوراً وذلك بأن يطلق روحه من عقال الجمال اللغوى فيختار موضوعاً يواتى ما يطلب . ولقد جمع فى أنشودته هذه بين جلال الدين وجمال الطبيعة ، وكأنما أراد بذلك أن يشير إلى وظيفة الشاعر الملهم إلهاما قدسياً وإلى صفات فنه ، فجاءت هذه الأنشودة مثلا يضرب به لمقدرته على التوفيق بين الجمال الذى يطرب له والسمو الروحى الذى يتعلق به .

تتألف هذه الأنشودة من سبع وعشرين فقرة بكل فقرة

ثمانية أسطر ؛ ومهد لها بمقدمة من أربع فقرات ، فهى كما ترى ليست بالقصيرة وبخاصة إذا ذكرنا بعض ما يختص به شعر ملتن وهو الإيجاز البليغ الرائع فى التعبير عن المعنى المراد ، والإيحاء القوى الواسع فى استعمال الكلمة المختارة .

يصف ملتن الطبيعة قبيل مولد الطفل وبعد مولده فيبدع ويعجب ؛ يصور فرحة الكون المتطلع إلى المولود تنبعث من سمائه وأرضه لحناً جديداً تغنى به الكواكب وتجاوبها الأرض ويمتزج به غناء الملائكة ، فتنتشى أنفس الرعاة والناس ، ويحسون تآلفاً واتساقاً بين موسيقى الكون وموسيقى نفوسهم ؛ وما هذا اللحن الجديد الذى تتجاوب به أرجاء الطبيعة وتستجيب له الأنفس إلا رمز لما يبشر به المسيح وما يدعو إليه من سلام وصفاء ومحبة . ويملأ الشاعر نشيده بما أبدع من صور ، فهناك رهط الرعاة فوق المروج الخضر فى هيئتهم القروية الساذجة . وهناك الصفان الأول والثانى من قبيل أولى أجنحة من الملائكة بين لابس خوذة وحامل سيف ، ومدرع بدرع براق . ثم هناك رهط من الآلهة بين إغريقية وفرعونية ، وأنماط من الأرواح الطيبة والخبيثة ، وعدد من عذارى الميثولوجيا ومخلوقاتها من طير ووحش وجن . هذا إلى ما سوّى خياله من مباهج الطبيعة ومفاتنها ، وما ابتدع بيانه من ضروب التعبير وصور التشبيه ، وأشكال المجاز ، وألوان الاستعارة ، تنظمها جميعاً موسيقى تكافىء موضوع الأنشودة وتواتى غرض الشاعر ، وينهض كل أولئك أدلة قوية على ذوق مطبوع وفن موهوب وذهن متمكن .

وكأنما أغراه نجاحه فى أنشودته هذه بهذه الناحية الدينية فأراد أن يعكف عليها . فها هو ذا ينظم قصيدة جعل موضوعها صلب المسيح ، وأخذ يمهد لوصف ما لاقاه من ألم هائل وعذاب مخيف ؛ غير أنها لم تصادف ما صادفته أنشودة الميلاد من هوى فى نفوس سامعيها من أقرانه فكرهها وشهد على نفسه أنه أخفق فيها ، وأمسك عن إتمامها لأنها « مطلب فوق ما يصح أن تتطاول إليها سنه يومئذ » ؛ وكان ملتن على شدة اعتداده بنفسه يرى مواطن الضعف فيما يأتى من عمل فينتقد نفسه ويتخلص من ضعفه وتلك إحدى محامده وهو من أجلها خليق بأوفر الثناء .

وفترت بعد تلك القصيدة حماسته لما هو موصول بالدين ، وتطامن طموحه إلى حين ؛ فانصرف إلى مجال آخر لم يتناوله من قبل وهو مجال الطبيعة ومشاهدها وما انبث فيها من جمال . ولعل إغلاق الكلية بضعة أشهر لتوقى الطاعون وزيارة ملتن أثناء ذلك للريف مما ساعد كذلك على إقباله على هذه الناحية الجديدة فى شعره .

نظم ملتن فى العام التالى قصيدة فى عيد الربيع عنوانها : « أغنية فى أحد أصباح مايو » فوصف شهر الورد وبهجته وما يبثه فى النفوس من مرح وشباب وسحر ، وكيف ترتدى الغابات والخمائل برداءه ، وتزهى الربى والخمائل بنعمائه ؛ ونظم قصيدة أخرى هى « نجوى البلبل » تفيض كسابقتها بإحساسه بالجمال والمرح وتعبر عن حيوية الشباب ولهوه ؛ وتنبىء بأنه لا يزال يهفو إلى الحب قلبه وتتعطش إلى لذاذاته نفسه .

وبرهن ملتن بقصيدتيه هاتين على استعداد عظيم لوصف مشاهد الطبيعة ، وتجلت فى هذه الناحية مقدرته على الإيحاء والتصوير بالكلمة المختارة تجر وراءها مختلف الصور حتى ليرى المرء بعين خياله ما يرى مثله بيصره من صور الكون ومشاهده ، وتلك موهبة تجعله يصنع بألفاظه ما يصنع الرسام بريشته ؛ وسيغدو ملتن من شعراء الطبيعة الأفذاذ فى أدب العالم كله ، وسيظل فى الأدب الانجليزى بعد شكسبير فى وصف الطبيعة الشاعر الذى لا يتطاول إلى أفقه حد ...

وظهرت دلائل ما يعتلج فى أطواء نفسه من حب فى سلسلة من الأغنيات نظمها بالطليانية ، بعد قصيدتيه الأخيرتين ، وقد كتب إلى صديقه ديودانى يقول : « أكتب إليك ما أكتب وأنا دهش منه ! اعلم أنى أنا الذى طالما تهزأت بالحب واحتقرته وضحكت من شركه قد وقعت بغتة فى هذا الشرك » . والحق أن ملتن كان يومئذ يضطرب بين الاستجابة القوية لداعى الحب والخوف من ضلالاته حتى غلبه الحب على أمره ، فأخذ يغنى ألحانا يشهد من قرأها أنها من أجل ألحانه وأعذبها ارتفع فيها بالحب إلى جوه المثالى وأفقه العذرى وخياله الشاعر .

وكانت الفتاة التى يشير إليها فى أغنياته الجديدة طليانية الأصل زينها نمط من الجمال الأجنبى يعد جديدا على نفسه جديدا فى ناظريه ، وقد افتتن بمحياها الأسمر وعينيها الدعجاوين ، وأخذ حبها بمجامع

قلبه ، وأحست بموقعها من نفسه فلم تلبث أن بادلته الحب ، وطارحته أحاديث الهوى ، فقد نظم أغنياته بالطليانية استجابة لطلبها إذ قالت له « إن الطليانية لغة الحب » .

ونظم ملتن فى نفس السنة أبياتاً عن شكسبير لتطبع فى صدر مجموعة من آثاره ، وتبين الناس فى هذه الأبيات مبلغ ما أوتيه من قوة البلاغة ومهارة التعبير فضلا عن أصالة الخيال الشعرى وجماله . وحسبك منه قوله : « ما حاجة شكسبير إلى صرح من الأحجار يعمل جيل فى إقامته فوق عظامه المجيدة ؛ ما حاجة رفاته إلى هرم يومىء إلى النجم ؟ يا ابن الذكر الحى يا أيها العزيز ، ويا وارث الصيت المجيد ، يا أيها العظيم ما حاجة اسمك إلى تزكية ضعيفة كهذه ، وقد بنيت لك من إعجابنا ودهشتنا تمثالا لا يبلى ؟ إنك قد أفضت علينا من شعرك الدفاق ما يخجل حياله كل فن متعثر بطىء ، واستمد كل قلب من أوراق كتابك الذى يجل عن كل قدر ، تلك الأسطر التى تنتمى إلى « دلفى » ، تلك الأسطر الخوالد التى تركت فيه أعمق الأثر ، ولقد سحرتنا عن أنفسنا حتى أحالتنا إلى مرمر من فرط ما تخيلنا وعجبنا ! وكان لك وأنت هكذا دفين ، من عظمتك ومن أبهة ذكرك وفخامته قبر من أجل الظفر بمثله يتمنى الملوك الموت » .

وبعد نشر هذه الأبيات القوية فى صدر تلك المجموعة من آثار شكسبير دليلا على أن ناشريها كانوا ينظرون إليه يومئذ وهو لا يزال طالباً فى الكلية نظرتهم إلى شاعر بدأت تتحقق له نباهة الإسم .

ونظم ملتن فى سنتيه الأخيرتين بالكلية بضع قصائد فى مناسبات ، أهمها ثلاث مرثيات وقصيدة كتبها عن نفسه هى أقرب إلى شعر التأملات . أما المرثيات فاثنتان منها كانتا عن هوبسون الشيخ أحد موظفى الكلية وقد قضى فيها من عمره سنين طويلة ، وفيها يمزج ملتن العطف بروح الدعابة . وكانت الثالثة عن سيدة فى مقتبل العمر تدعى ليدى ونشستر أحدث موتها حزنا عميقا فى أوساط المجتمع العليا . ولقد ذاعت مرثية الشاعر الشاب ذيوعا عظيما فى تلك المناسبة ، وأحبها كل من قرأها وأثنى على الشاعر من أجلها ثناء كبيراً .

أما القصيدة التى كتبها عن نفسه فكانت فى عيد ميلاده الثالث والعشرين ، وفيها يعجب الشاعر من سرعة انقضاء الزمن ، ويأسف أن يخلو ربيع حياته الأخير من البراعم والأكمام ؛ وهو بهذه الاشارة يضطغن على نفسه ، فربيعه زاخر بالحياة والنماء ، ولعله يقصد أن أكثر ما جادت به براعته لم ينشر ليدل على وفرة ثماره ، أو لعله ضرب من الطموح ، فهو إذ يستقل ما عمل حتى يومه هذا إنما يشير إلى ما هو جامع له عزمه فى غده .

والشواهد على عزمه المصمم قائمة فى موضوع ألقاه فى سنته الرابعة والعشرين وهى السنة التى غادر فيها الكلية ، وكان الطلاب يتناظرون فى العلم والجهل وأن العلم يجلب للمرء من السعادة أكثر مما يجلب الجهل ؛ وتحدث ملتن فأفاض وأجاد فى بيان فضل العلم وقارن بين أوروبا فى عصر الظلمات وبينها فى عصر النهضة ، وأشار إلى الإنسان فى بداوته إذ كان يهيم على وجهه ويتخذ من الجبال بيوتا ويعيش بلا دين ولا قانون ولا ثقافة كما تعيش ضوارى الوحش ، وإلى الإنسان فى حضارته وما ينعم به من المعرفة ويهتدى به من الدين ويتمتع به من روابط الثقافة ، واختتم كلامه فأهاب بالمستمعين أن يكتسبوا كل يوم معرفة جديدة حتى يكون شأنهم شأن الاسكندر حين بكى لأنه لا يجد أمامه عوالم أخرى تطويها انتصاراته ...

وفى سنة ١٦٣٢ غادر ملتن الكلية بعد أن حصل على درجتها العلمية الثانية وبعد أن قضى فيها سبع سنين ؛ رحل عنها وإنه ليأسف على رحيله كثيرون والكل به معجبون . ولا غرو أن تتغير نظرة الأساتذة والطلاب إليه عما كانت قبل ممن كان له مثل متانة خلقه ورجاحة عقله وفصاحة لسانه وقوة جنانه وشاعرية روحه وطموح نفسه ، خليق بمن عرفوه أن يأسفوا على فرقته وأن يعجبوا بشخصيته . ولقد طلب إليه أكثر من مرة القائمون على أمر الكلية أن يبقى بينهم زميلا بعد أن تخرج فيها ولكنه لم يجد فى نفسه الميل إلى ذلك ؛ ونجد مصداقا لتغير نظرتهم إليه فيما كتبه بعد ذلك بعشرة أعوام إذ أشار إلى ما لقى من احترام على أيدى أساتذة الكلية يفوق ما لقى أنداده منه ، وإلى رغبة هؤلاء الأساتذة فى أن يبقى معهم إلى أن قال « ولقد وثقت فوق ذلك من اختصاصهم إياى بالمودة والعطف وذلك من كتبهم التى تلقيتها قبل رحيلى وبعد ذلك بزمن طويل وكلها تفيض بعطفهم على ومودتهم إلى ومحبتهم إياى » .

أما هو فما كان يذكر أيامه فى كمبردج بخير ، بل ما برح يشكو من تخلفها فى المعرفة وتمسكها بالماضى وتعودها عما كان يرجو من نهوض .

(يتبع) **الخفيف**

كعب الأحبار

هو الصهيوني الأول

للأستاذ محمود أبو رية

[نشر الأستاذ سعيد الأفغانى أن الصهيوني الأول هو عبد الله بن سبأ الذى تظاهر بالاسلام على عهد عثمان . وإنا على احترامنا لما نشر الأستاذ الأفغانى نبين أن الصهيونى الأول فيما حققناه هو (كعب الأحبار) ذلك الكاهن اليهودى الذى أسلم على عهد عمر خداعاً ونفاقاً ، وكان أول من أرسل الصيحة (بالصهيونية) فى بيت المقدس ، ولكن الفاروق فطن لهذه الدعوة الخبيثة وقضى عليها . ولما وجد أن عمر صخرة عاتية تحول بينه وبين ما يريد بالاسلام من كيد ، أخذ مع جماعة من فارس يأتمرون به ليقتلوه . ولما اندك حصن الاسلام بقتل عمر أرصد مكره ودهاءه لما أسلم من أجله ، فأنشأ يبث من إفكه — ما شاء أن يبث — فى تفسير كتاب الله وأحاديث رسوله . وإنا نكشف هنا عن حقيقة هذا الحبر الذى لا يزال يظفر بثقة المسلمين ، ويعتبرونه من خيار التابعين ، حتى يكون الناس على بينة من أمره ، ويعرفوا مبلغ ضرر هؤلاء اليهود الذين تظاهروا بالاسلام وانطوت قلوبهم على غيره]

لما قويت شوكة الدعوة الإسلامية واشتد ساعدها لم ير الذين كانوا يقفون أمامها ، ويصدون عن سبيلها ، إلا أن يكيدوا لها من طريق الحيلة والخداع ، بعد أن عجزوا عن النيل منها بوسائل القوة والنزاع .

ولما كان أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ، لأنهم بزعمهم شعب الله المختار فلا يعترفون لأحد من غيرهم بفضل ، ولا يقرون لنبى بعد موسى برسالة ، فإن رجالهم وأحبارهم لم يجدوا بعد أن غلبوا على أمرهم ، وأخرجوا من ديارهم ، إلا أن يستعينوا بالمكر ويتغلبوا بالدهاء لكى يصلوا إلى مايبتغون . وهداهم المكر اليهودى إلى أن يتظاهروا بالإسلام ويطووا نفوسهم على غيره حتى يخفى كيدهم ويجوز على الناس مكرهم . وكان أقوى هؤلاء الدهاة (كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سبأ) فاستغلوا بإسلامهم واندسوا بين المسلمين مظهرين عبادتهم وتقواهم . ولما وجدوا أن حيلهم قد راجت وأن المسلمين قد اغتروا بهم وسكنوا إليهم ، جعلوا أول همهم أن يضربوا المسلمين فى صميم دينهم فيدسون فيه ما يريدون من أساطير وخرافات وأوهام لكى يهى هذا الدين ويضعف . ولكى يحكم هؤلاء الدهاة أمرهم كانوا يزعمون تارة أن هذه المفتريات من كتابهم ويدعون أخرى أنها من مكنون علمهم ، وما هى فى الحقيقة إلا من مفترياتهم ، وأنى للصحابة أن يفطنوا لتمييز الصدق من الكذب من كلامهم ، وهم من ناحية لا يعرفون العبرانية التى هى لغة كتبهم ، ومن جهة أخرى فإنهم لا يجاروهم فى دهائهم ومكرهم . وبذلك كان الصحابة ومن تبعهم يأخذون كل ما يبثه هؤلاء الدهاة بغير بحث ولا نقد معتبرين أنه صحيح لا ريب فيه .

وإنا نلم هنا بطرف صغير من تاريخ زعيم هؤلاء الدهاة وشيخهم وهو (كعب الأحبار) وهو الذى نسوق من أجله هذا الحديث .

كعب الأحبار :

هو كعب بن ماتع الحميرى من آل ذى رعين ، وقيل من ذى الكلاع — من اليمن — كان من أحبار اليهود وعرف بكعب الأحبار ، أسلم على عهد عمر على الراجح وسكن المدينة فى خلافة عمر وتحول إلى الشام فى زمن عثمان فسكنها ومات بحمص سنة ٣٤ هـ .

وقد استصفاه معاوية وجعله من مستشاريه لكثرة علمه كما كانوا يقولون عنه أو كما زعم هو فى قوله « ما من الأرض شبر إلا مكتوب فى التوراة التى أنزل الله على موسى ، ما يكون عليه وما يخرج منه إلى يوم القيامة !!! »

وقد اغتر به الصحابة ومن بعدهم فرووا عنه وسمعوا منه ، وكان أكثر من روى عنه من الصحابة أبو هريرة الذى كان كذلك أكثرهم تحديثاً عن النبى ، ذلك بأن هذا الكاهن سلط عليه قوة دهائه لكى يستحوذ عليه ويغيمه ليلقنه كل ما يريد . ومما اتخذه من أساليب المكر والخداع ليطويه تحت جناحه أن قال فيه كما روى الذهبى : ما رأيت أحداً لم يقرأ التوراة أعلم بما فيها من أبى هريرة ! !

(١) على أنه قد دفن بحمص فان له قبراً يزار بالقاهرة بحى الناصرية قائم بمسجد يسمى باسمه .

سبب إسلامه :

وضع هذا الكاهن لإسلامه سبباً عجيباً فقد أخرج ابن سعد عن سعيد بن المسيب قال : قال العباس ما منعك أن تسلم فى عهد النبى وأبى بكر ؟ فقال إن أبى كتب لى كتاباً من التوراة فقال اعمل بهذا وختم على سائر كتبه ، وأخذ علىّ بحق الوالد على الولد أن لا أفض الختم عنها ، فلما رأيت ظهور الإسلام قلت لعل أبى غيب عنى علماً ففتحتها فإذا صفة محمد وأمته فجئت الآن مسلماً !

وروى عبد الله بن عمر أن رجلا من أهل اليمن جاء إلى كعب فقال له : إن فلاناً الحبر اليهودى أرسلنى إليك برسالة ! فقال كعب هاتها ، فقال له الرجل : إنه يقول لك ألم تكن سيداً شريفاً مطاعاً ؟! فما الذى أخرجك من دينك إلى أمة محمد ؟ فقال له كعب أتراك راجعاً إليه ؟ قال نعم ! قال فإن رجعت إليه فخذ بطرف ثوبه لئلا يفر منك ! وقل له : يقول لك ، أسألك بالذى فلق البحر لموسى ، وأسألك بالله الذى أتى الألواح إلى موسى بن عمران فيها علم كل شىء !! ألست تجد فى كلمات الله تعالى أن أمة محمد ثلاث أثلاث : فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة ، وثلث يدخلون الجنة بشفاعة أحمد !! فإنه سيقول لك نعم ! فقل له يقول لك كعب : اجعلنى فى أى الأثلاث شئت !

كيف كانوا يمكرون بالمسلمين :

اتبع هؤلاء الأحبار طرقاً عجيبة لكى يستحوذوا على عقول المسلمين ، وإليك طرفاً من هذه الأساليب :

أخرج الترمذى عن عبد الله بن سلام وهو من أحبار اليهود أنه مكتوب فى التوراة فى السطر الأول « محمد رسول الله عبده المختار مولده مكة ومهاجره طيبة وملكه فى الشام » وهذا الذى قاله ابن سلام قد أحكمه الداهية كعب ، فقد روى عنه الدارى : فى السطر الأول محمد رسول الله عبده المختار لا فظ ولا غليظ ولا صخاب بالأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، مولده بمكة وهجرته بطيبة وملكه بالشام[1] وفى السطر الثانى : محمد رسول الله أمته الحادون يحمدون الله فى كل منزل ويكبرون على كل شرف رعاة الشمس يصلون الصلاة إذا جاء وقتها ولو كانوا على رأس كناسة ! ويأتزرون على أوساطهم ويوضئون أطرافهم وأصواتهم بالليل فى جو السماء كأصوات النحل .

(١) تخصيص الملك فى الشام على لسان هؤلاء الأحبار إنما كان لغرض سياسى وقد عقدنا له فصلا برأسه فى كتابنا (حياة الحديث المحمدى)

كعب وعمر :

لما أتى كعب إلى المدينة على عهد عمر مظهراً إسلامه أخذ يعمل فى دهاء لما أسلم من أجله ، فكان أول أمر وجه إليه همه أن يفترى الكذب على النبى ، ولكن عمر فطن لكيده فنهاه عن أن يروى عن النبى شيئاً وتوعده بأن يترك الحديث عن رسول الله أو يلحقه بأرض القردة .

وعلى أن عمر رضى الله عنه قد ظل يراقب هذا الداهية بحكمته وحزمه وينفذ إلى أغراضه الخبيثة بنور بصيرته كما جرى ذلك فى قصة الصخرة التى ستعرفها بعد ، فإن شدة دهاء هذا الرجل قد تغلبت على حزم عمر ويقظته فظل يعمل بكيده فى السر والعلن حتى انتهى الأمر بقتل عمر بمؤامرة اشترك فيها هذا الكاهن وجماعة معه منهم الهرمزان ملك خورستان وكان قد جىء به أسيراً إلى المدينة .

قتل عمر :

ذكر المسور بن مخرمة[1] أن عمر لما انصرف إلى منزله بعد أن أوعده أبو لؤلؤة جاءه كعب الأحبار فقال يا أمير المؤمنين (أعهد) فأنت ميت فى ثلاث ليال (رواية الطبرى فى ثلاثة أيام) قال وما يدريك ؟ قال أجده فى كتاب التوراة ! قال عمر : أتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ؟ قال اللهم لا ، ولكن أجد حليتك وصفتك ، وأنك قد فنى أجلك ! قال ذلك وعمر لا يحس وجعاً ، فلما كان الغد جاءه كعب ، فقال بقى يومان ! فلما كان الغد جاءه وقال: مضى يومان وبقى يوم ! وهى لك إلى صبيحتها ، فلما أصبح خرج عمر إلى الصلاة وكان يوكل بالصفوف رجالا فإذا استوت كبّر ، ودخل أبو لؤلؤة فى الناس وبيده خنجر فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرته وهى التى قتلته . ودخل عليه

(١) ص ٢٤ ج ٣ تاريخ ابن الأثير .

كعب وقال له : ألم أقل لك إنك لا تموت إلا شهيداً وإنك تقول من أين وإنى فى جزيرة العرب ؟ وفى رواية أخرى : لما دخل كعب على عمر قال له « الحق من ربك فلا تكونن من الممترين »

ومما يختلج عرق الشك فى أمر تآمر كعب بعمر ما أخرجه الخطيب عن مالك ، أن عمر دخل على أم كلثوم بنت على وهى زوجته فوجدها تبكى ، فقال ما يبكيك ؟ قالت هذا (اليهودى) أى كعب يقول إنك باب من أبواب جهنم ! فقال عمر ماشاء الله ! ثم خرج فأرسل إلى كعب فجاءه فقال يا أمير المؤمنين والذى نفسى بيده لا ينسلخ ذو الحجة حتى تدخل الجنة ! فقال ما هذا ! مرة فى الجنة ! ومرة فى النار ! فقال : إنا لنجدك فى كتاب الله على باب من أبواب جهنم تمنع الناس أن يقتحموا فيها فإذا مت اقتحموا !!

وقد برت يمينه فقد قُتل عمر فى ذى الحجة سنة ٢٣ هـ فهل بعد ذلك يمترى أحد فى أن كعباً هو رأس مؤامرة قتل عمر !

ولعل المسلمين قد ازدادوا ثقة بكعب بعد مقتل عمر إذ حسبوا أن التوراة كما يزعم فيها علم ما كان وما سيكون وما هو كائن ! ولكن لما كثر كذبه وفشا بهتانه أخذ بعضهم يقابل ما يرويه بالشك فقد روى البخارى أن معاوية قال فيه (إنا كنا لنبلو عليه الكذب ، وقال عنه على (إنه لكذاب) وكذبه كذلك عبد الملك بن مروان .

قصة الصخرة بين عمر وكعب :

لما افتتحت إيلياء وأرضها على يدى عمر فى ربيع الآخر سنة ١٦ هـ ودخل عمر بيت القدس دعا كعب الأحبار وقال له : أين ترى أن نجعل المصلى ؟! فقال كعب : إلى الصخرة . فقال له عمر: يا ابن اليهودية ، ضاهيت والله اليهودية ، وفى رواية أخرى خالطتك يهودية ! وقد رأيتك وخلعك نعليك !

ولما أخذوا فى تنظيف بيت القدس من الكناسة التى كانت الروم قد دفنته بها سمع التكبير من خلفه فقال ما هذا ؟ فقالوا كبر كعب وكبر الناس بتكبيره ! فقال علىَّ به فأُتىَ به فقال يا أمير المؤمنين : إنه قد تنبأ على ما صنعت اليوم نبى منذ خمسمئة سنة ! قال وكيف ؟ فقال إن الروم أغاروا على بنى إسرائيل فأديلوا عليهم فدفنوه ! إلى أن وليت فبعث الله نبياً على الكناسة فقال أبشرى ، أورى شلم ، عليك الفاروق ينقيك مما فيك! وهكذا يلعب بعقول المسلمين .

وقال كعب مرة : « إن الله قال للصخرة أنت عرشى الأدنى وأنها موضع قدم الرحمن . وقد وضع كعب وإخوانه فى فضائل بيت القدس وغيره من البقاع التى فى الشام أكاذيب كثيرة ملأت مؤلفات .

ما بثه كعب فى التفسير والحديث :

بلغ من دهاء كعب أن جعل بعض الصحابة يروون عنه أحاديث معزوة إلى رسول الله. وفى كتب الحديث فى باب رواية الأكابر عن الأصاغر أن العبادلة الثلاثة[1] وأبا هريرة ومعاوية وغيرهم قد رووا عن كعب الأحبار .

ولا نستطيع أن نسوق هنا كل ما بثه فى تفسير كتاب الله ، وما رواه من أحاديث عن رسول الله لأنها إذا جردت تملأ مجلدات وإنما نجتزىء ببعض الأمثال :

قال لمعاوية عن ذى القرنين : إنه كان يربط خيله بالثريا .

وقال عن العرش : إنه لما خلق اهتز تعظيما فطوقه الله بحية لها سبعون ألف جناح ، فى كل جناح سبعون ألف ريشة ، فى كل ريشة سبعون ألف وجه ، فى كل وجه سبعون ألف فم ، فى كل فم سبعون ألف لسان يخرج من أفواهها كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر وعدد ورق الشجر ... الخ فالتوت الحية على العرش ... وهى ملتوية عليه فتواضع عند ذلك !

وقال الأرضون السبع على صخرة والصخرة فى كف ملك والملك على جناح الحوت والحوت فى الماء والماء على الريح والريح على الهواء ريح عقيم لا تلقح وأن قرونها معلقة فى العرش .

وقال : إن لله ديكا عنقه تحت العرش وبراثنه فى أسفل الأرض فإذا صاح صاحت الديكة .

وما قاله كعب لم يلبث أن جاء حديثاً مرفوعا .

(١) هم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو ابن العاص .

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٦٨٣ — قضية خمرية . .

فى (شرح المقامات) للشريشى :

قال أحمد بن ظبيان الحائز : اجتمع قوم على شراب لهم فغناهم مغنيهم بشعر حسان :

إنَّ التى ناولتَنى فرددتُهـا ... قُتِلتْ (قُتِلتَ) فهاتها لم تُقتل[1]

كلتاهما حلب العصر فعاطنى ... بزجاجة أرخاهما للمِفصلِ[2]

(١) يقال : قتلت الخمر إذا مزجتها ، وقد أحسن كل الاحسان فى تجنيس اللفظ : دعا عليه بالقتل فى مقابلة المزج (شرح الشريشى)

(٢) المفصل : اللسان لأن به يفصل بين الحق والباطل ، وليس فيما اعتمده عبيد الله بن الحسن من الأسماح وخفض الجناح ما يقذف فى نزاهته أو يغض من نبله وبراعته (شرح الشريشي)

وفى التوراة : أربعة أنهار فى الجنة ، وفى حديث أبى هريرة أحد من رووا عن كعب أن النبى قال : النيل وسيحان وجيحان والفرات من أنهار الجنة ، أما ابن عباس وقد روى كذلك عن كعب فقد جعلهم خمسة أنهار .

***

هذا هو كعب الأحبار — الصهيونى الأول — أبرزناه على حقيقته بعد أن نزعنا عنه ثوب الرواية الإسلامية فبدا لهم عارياً — كما خلقته الصهيونية — حتى يكون المسلمون على بصيرة من أمره ، ولعلهم بعد ذلك يعملون على تطهير كتب التفسير والحديث والتاريخ من مفترياته ومفتريات إخوانه من كهنة اليهود ليبدو نور الدين مشرقاً فى محكم آياته ، وتتجلى لهم فضائله فى ناصع بيناته ، وبتحقق قول الله : سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق .

(المنصورة) **محمود أبو ريه**

فقال بعضهم : امرأتى طالق إن لم أسأل الليلة عبيد الله بن الحسن القاضى عن علة هذا الشعر لم قال : (إن التى) فوحد ثم قال : (كلتاهما) فثنى ؟ فأشفقوا على صاحبهم وتركوا ما كانوا عليه ، ومضوا يتخطون القبائل حتى انتهوا إلى بنى شقرة ، وعبيد الله بن الحسن يصلى ، فلما فرغ من صلاته قالوا قد جئناك فى أمر قد دعتنا إليه ضرورة ، وشرحوا له خبرهم ، فقال : (إن التى ناولتنى فرددتها) عنى بها المزوجة بالماء ثم قال من بعدُ (كلتاهما حلب العصير) يريد الخمر المحتلبة من العنب والماء المحتلب من السحاب[1] المكنى عنها بالمعصرات فى قوله تعالى وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا .

٦٨٤ — وصرت أنسى أننى أنسى

ابن الحجاج البلوى : أنشدنى العمانى لبعضهم فى النسيان

أفرط نسيانى إلى غاية ... لم يدع النسيان لى حسا

فصرت مهما عرضت حاجة ... مهمة ضمنتها الطرسا

وصرت أنسى الطرس فى راحتى ... وصرت أنسى أننى أنسى

٦٨٥ — على يد الإفلاس

قال ابن الهبارية :

يقول أبو سعيد إذ رآنى ... عفيفاً منذ عام ما شربت

على يد أى شيخ تبت ؟ قل لى ... فقلت : على يد الإفلاس تبت

٦٨٦ — وإنه تركناك فلنفسك

قال أبو العيناء : كنا عند ابن أبى دؤاد ومعنا محمود الوراق وجماعة من أهل الأدب والعلم فجاءه رسول إيتاخ فقال : إن الحاجب أبا منصور يقرأ على القاضى السلام ويقول : القاضى يتعنى ويجيء فى الأوقات وقد تفاقم الأمر بينه وبين كاتب أمير المؤمنين (يريد ابن الزيات) فصار يضرنا عنده ، قصد القاضى . وما أحب أن يتعنى إلىّ لهذا السبب إذ كنت لا أصل إلى مكافأته .

فقال : أجيبوه عن رسالته ، فلم ندر ما نقول ونظر بعضنا إلى بعض فقال : أما عندكم جواب ؟

(١) السحاب : اسم جنس جمعى واحده سحابة يذكر ويؤنث ويفرد ويجمع (التاج)

قلنا : القاضي (أعزه الله) أعلم بجوابه منا .

فقال للرسول : إقرأ عليه السلام ، وقل له : ما أتيتك متكثراً بك من قلة ، ولا متعززاً بك من ذلة ، ولا طالباً منك رتبة ، ولا شاكياً إليك كربة ، ولكنك رجل ساعدك زمان ، وحركك سلطان ، ولا علم يؤلف ، ولا أصل يعرف ، فإن جئتك فلسلطانك ، وإن تركتك فلنفسك . فعجبنا من جوابه .

٦٨٧ — القدر والطلب

قال الطرطوشي : القدر والطلب كأعمى ومقعد في قرية يحمل الأعمى المقعد ويدل المقعد الأعمى .

٦٨٨ — نصيحة . . .

قال محمد بن الجهم : من شأن من استغنى عنك ألا يقيم عليك ، ومن احتاج إليك ألا يزول عنك ، فمن حبك لصديقك وضنك بمودته ألا تبذل له مايغنيه عنك ، وأن تتلطف فيما يحوجه إليك ، وقد قيل في مثل هذا : أجع كلبك يتبعك ، وسمنه يأكلك . فمن أغنى صديقه فقد أعانه على الغدر ، وقطع أسبابه من الشكر . والمعين على الغدر شريك الغادر كما أن مزين الفجور شريك الفاجر .

٦٨٩ — انظر إلى وجهك ثم اعشق

جارية أعجبها حسنها	فمثلها في الناس لم يخلق
خبرتها أني محب لها	فأقبلت تضحك من منطقي
والتفتت نحو فتاة لها	كالرشأ الوسنان في قرطق
قالت لها قولي لهذا الفتى :	انظر إلى وجهك ثم اعشق

* * *

إسمعيل القراطيسي :

وقد أتاني خبر ساءني	مقالها في السر : واسوأتاه !
أمثل هذا يبتغي وصلنا	أما يرى ذا وجهه في المراه ؟!

٦٩٠ — فتوى الفتوة

قال الصفدي في شرح اللامية :

أخبرني من لفظه الشيخ العلامة أثير الدين أبو حيان سماعاً من كتابه المسمى مجاني العصر في ترجمة جمال الدين ابرهيم الوراق الكتبي (عرف بالوطواط) أنه كان بينه وبين بعض القضاة مودة فلما تولى ذلك القاضي قضاء الديار المصرية توهم جمال الدين أنه يحسن إليه ويبره ، فسأله فلم يجبه إلى شيء من مقصوده . فاستفتى عليه فضلاء الديار المصرية فكتبوا على فتياه بأجوبة مختلفة وصير ذلك كتاباً ، وسماه (فتوى الفتوة ومرآة المروة) وقد راحت به نسخة إلى المغرب .

قلت : سألت أنا الشيخ أثير الدين عن ذلك القاضي فيما بيني وبينه فأخبرني أنه شهاب الدين محمد الخولي ، وقد وقفت أنا على ذلك الكتاب ونقلته بخطي ، وهو في الجزء الثاني عشر من التذكرة والفتيا نثر حسن ، وأجوبة الجماعة أهل عصره نثر ونظم . ومعنى الفتيا : أيجوز لمن حسنت حاله وارتفعت منزلته ألا يحسن إلى صاحبه ولا يفي له بشيء من دنياه ؟

٦٩١ — فإن لم تجد عقلا فماذا تحيف

قال الصاحب في رجل كثير الشرب ، بطيء السكر :

يقال لماذا ليس يسكر بعد ما	توالت عليه من ندماه قرقف
فقلت : سبيل الخمر أن تنقص الحجى	فإن لم تجد عقلا فماذا تحيّف ؟

٦٩٢ — ما يمنعك من ذلك ؟

قال رجل لخالد بن صفوان : إني أحبك

قال : وما يمنعك من ذلك ولست لك بجار ولا أخ ولا ابن عم ؟ (يريد أن الحسد موكل بالأدنى فالأدنى)

٦٩٣ — جوابان لسؤالين

سأل إنسان ابن الجوزي فقال : ما لنا نرى الكوز الجديد إذا صب فيه الماء ينش ويخرج منه صوت شكواه ؟

فقال : لأنه يشتكي إلى برد الماء ما لاقاه من حر النار .

فقال السائل : فما لنا نراه إذا ملأناه لا يبرد فإذا نقص برد ؟

فقال : حتى تعلموا أن الهواء لا يدخل إلا على ناقص

نجوى الشهيـــد...

للشاعر حسين محمود البشبيشي

[لكأنى بتلك الأرواح الشهيدة ، قد ترنمت بهذه الأنغام وهى تموت أجسادا ، لتخلد أرواحا ...]

أبى ، إن مزقوا بالنار قلبــاً بين أحنائى
وســار الظلم مختالا على أطلال أشلائى
ومت ولم يعد منى سوى ماض وأصداء
أبى لا تبك فالدنيــا سبيل النازح النائى
أبى لا تبكنى فالموت لم يذهب بأضوائى
أبى لا تبـــكنى أبدا
قُتلت على الثرى جسدا
وروحى ظـل متقـــدا
أبى لا تبك من خلدا

فلم يذبل سوى جسدى وروحى لم تزل تسرى
فسل فتياننا عنهـا ... ففيهم يقظة الممر
وفيهم صورة لفتاك ... رغم الموت والقبر
فما متنا ... ولكن مات من لم يسع للنصر
وماتت نفس من قد عاش بين الذل والقهر
أبى لا تبك من خلدا
قتلت على الثرى جسـدا
وروحى ظل متقـــدا
أبى لا تبـــكنى أبدا

وأنتم يا بنى الأوطان ... أنتم عمرى الثانى
ففى أضلاعكم قلبى وفيكم روح وجدانى
سأخلد فى شبابكم بإحساسى وإيمانى
إذا ما نصركم قد لاح أحيـا ميت جثمانى
وأسعد كلما ابتسمت بكم آمال أوطانى
قتلت على الثرى جســدا
وروحى ظـل متقـــدا
وبين قلوبكم خـلدا
أبى لا تبـــكنى أبداً

أبى إن حقق الله على الأيام مسعانا
وتم جلاؤهم عنـا ... فلا تحزن لما كانا
وحسبك أننـــا للنيل أرواحاً وأبدانا
تظللنا سمـــاء النيل أطفـــالا وشبانا
وقد عدنا لأرض النيل يوم الموت قربانا
أبى لا تبـــكنى أبدا
وحسب فتاك أن خـلدا

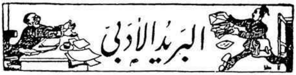
من ليالى الفراق :

دمــــوع ...

للشاعر عبد الرحمن الخميسى

دموعُك هذى التى تسكبين
صبيبُ لظًى فى فؤادى الأمين
فلا تحبسى سيلها ، إننى
أراكِ بما فيه تحترقين !!
وصُبّى على كبدى ... نارها
فأحمل عنكِ الشقاءَ الدفين
يُفَدِّيكِ منّى ما خَلَّفَتْهُ
رزايا الزمان ، وظُلم السنين !
ألا قرّبى شفتيكِ ، وألْقى
على كتفى رأسَكِ المستكين
فذاكَ المساءُ لنا حارسٌ
يُهوّمُ فى رَحَباتِ السكون
وهذا هو النهرُ مُسبِتٌ ... عليه
من البدرِ ثوبٌ وشيٌ حزين
وذاك الشتاء عجوزٌ تدبُّ
فتسرى البرودةُ فى العالمين
وهذا هو البـدرُ يصعدُ فى
مراقى السماء كليلَ الجبين
تحياته ... دُرَرٌ من سَناهُ
يُبعثرُها فى حِمى العاشقين
ونحن على شاطىء النيل ، لا
يرانا سوى شجرَ الياسمين
فلا تكتمى شهقةً فى الضلوع
بحرقتها كدتِ تختنقين ...!!
دعينى أرشفُ دموعَك حتى
أذوقَ بها لذعاتِ الشجون
وأشربُ بأنفاسِكِ المحرقاتِ
سلافاً تخدّرُ روحى الحزين
فأنسى الحياةَ وما فوقها
سوى أننا فى ذُرى الخالدين !

(يافا) عبد الرحمن الخميسى



كيف صار والد المرحوم أحمد حسنين باشا أزهريا ؟

كان الشيخ محمد حسنين البولاقي من كبار علماء الدين في الأزهر ، وكان أبوه من عظام أمراء البحر في الأسطول ، وكان العرف المتبع أن يكون التعليم المدني للخاصة والتعليم الديني للعامة ، فكيف صار ابن أمير البحر الأرستقراطي أزهرياً ؟

حدثنا صديقنا الأستاذ محمود حسن زناتي عن أبيه — وكان أبوه رحمه الله أستاذاً للطيب الذكر المغفور له أحمد حسنين باشا — أن الصبي محمد حسنين وقع في نفسه منذ صغره أن يقرأ القرآن ويحفظ آداب الدين ، وازداد هذا الميل فيه حتى سأل أباه أن يرسله إلى الأزهر . فسخر منه أبوه وأمره ألا يجرى هذا الأمر على لسانه وألا يخطره بباله ، فتوسل إليه بالشيخ الانبابي شيخ الأزهر إذ ذاك فلم يقبل الوسيلة . وأصر الابن على طلبه ، وأصر الأب على رفضه ، وزاد على ذلك أن توعده بالطرد إذا أقدم على هذه المرة . ولكن العاطفة الدينية كانت تعصف برأس الغلام عصفاً شديداً فلم يحفل بوعيد أبيه ، ودخل الأزهر وأوى إلى الشيخ الانبابي فآواه وأكرم مثواه وأنفق عليه حتى بلغ الغاية من الفقه في الدين والتبحر في علوم العربية . ثم ظفر بشهادة العالمية وارتقى إلى كرسي من كراسي الأزهر .

وفي ذات يوم دعا شيخ الأزهر أمير البحر إلى داره فلبى الدعوة ، وعرض عليه أن يزور الأزهر فقبل العرض ، وعلى حلقة من حلقات الدروس ازدحم فيها الطلاب واصطف حولها الوقوف ، وقف الشيخ الانبابي وسأل أمير البحر : أتعرف هذا العالم الشاب يا باشا ؟ فحدق الباشا في العالم ثم فغر فاه وقال دهشاً : هذا ابني محمد ! فقال الشيخ الانبابي في لهجة لا تخلو من تأنيب وسخرية : نعم هو ابنك محمد يا باشا ؟ وإني أناشدك الله أن تقول الحق : أيكما أعظم قدراً عند الناس وأرفع مكانة عند الله ؟ فلم يسع الباشا إلا أن يقول : هو ولا شك .

ومنذ ذلك اليوم كان الشيخ محمد حسنين ابن الباشا يغدو إلى الأزهر ويروح إلى القصر في عربة فخمة يجرها جوادان مطهمان !

من أخلاق العلماء :

وعلى ذكر الشيخ الأنبابي روى لنا الصديق موقفاً من مواقفه التي يعتز بها الخلق ويكرم فيها الدين ؛ وخلاصته أن اللورد كرومر رغب في أن يزور شيخ الأزهر ، وكان الشيخ الأنبابي قد جعل إدارة الأزهر في داره بحي الظاهر ، فلما كلموه في أمر تلك الزيارة أنكر أن يكون للورد معه شأن ، ولما قبل أن يزوره وسئل كيف يستقبله أبى أن يلقاه على باب الدار ، وصمم أن يسلم عليه وهو قاعد . فقالوا له إنه كبير الانجليز وقد يجد في هذا اللقاء إهانة له ولقومه ، وخير من ذلك أن تجلسه في غرفة ثم يدخل الشيخ عليه فيقف هو وينتهي الأمر . فقال : هذه حيلة وأنا أكره الالتواء والتحيل ، وسألقاه على الوجه الذي أختاره فدعوني وإياه .

وأقبل اللورد كرومر في جبروته وسلطانه فاستقبلوه إستقبال الملوك ؛ ودخل على الشيخ في البهو وفي يده قبعته فلم يهتز الشيخ ولم يقف . إنما رد التحية وصافح اللورد وهو قاعد ، ثم قال لكبير من كبار المصريين كان حاضر الزيارة : قل للورد إني أحترمه ، ولكني سلمت عليه قاعداً لأن ديني ينهاني أن أقوم له . فانحنى اللورد وأثنى وشكر ، ثم قال بعد ذلك لمن معه : هذا أول شيخ رأيته في مصر يكرم نفسه ويحترم دينه !

الأستاذ منصور جاب الله :

كان الأستاذ منصور جاب الله كالشمعة التي تحترق لتضيء ما حولها . كان أديبا ملء إهابه ، وكان فناناً ملء بردنيه ، اتخذ الأدب غاية ، ولم يلتمسه وسيلة ، فتعفف عن التكسب به على وفرة إنتاجه ، وعلى أنه لم يكن على شيء من الثراء قل أو كثر ، وإنما كان غني النفس عفيف القلب طاهر اليد واللسان .

وكان رحمه الله آية في الوفاء للصحب والأصدقاء ، وإذ يعوزه أن يسد خلة لأحد منهم ، أو تتقاصر يده عن معونتهم ، يعمد إلى مساعدتهم بأدبه ، فيكتب لهم المحاضرات أو المقالات التي تدر عليهم المكاسب ، لا يقتضي على ذلك أجراً إلا المثوبة من عند الله . ولقد عرفنا فيما عرفنا عنه أنه كان يساعد بعض إخوانه الذين نالوا درجات جامعية عالية ، فيعد لهم المراجع وينسق لهم

الفصول والأبواب ، ثم يصوغ الرسالة فى صيغتها النهائية ، ثم يتقدم بها الطالب فينال درجة الدكتوراة أو الماجستير ! !

إذن مات هذا الأديب المغمور ، فهل ذكره أحد ؟ أو نعته صحيفة من تلك الصحف التى كان يرسل قلمه فيها فياضاً جزلا ؟ لم يذكره أحد ، وجزى الله صديقه الأستاذ عبد اللطيف النشار إذ أنشد على قبره هذه الأبيات :

على « منصور » يبكى قارئوه ... فقد عرفوا له صدق الزماع
تنسك فى اليفاعة للأمالى ... وأخبت فى الشبيبة للـيراع
فكان بجده كهلا وشيخا ... فعاش كفاء أعمار تباع
له صغرى مجالات وضاء ... وكبرى ذات حسن وامتناع
فيا أسفا عليه وقد توارى ... وراء الغيب كالشفق الشاع

رحم الله الفقيد وعوض فيه الأدب خيرا .

فؤاد علي الاوادب
جامعة فاروق — كلية الآداب

ملاحظة على مقال « غزل الفقهاء »

طالعت للاستاذ الكبير علي الطنطاوى فى عدد الرسالة الأخير مقالا ممتعاً عن « غزل الفقهاء » وقد نسب فيه إلى الشاعر الفقيه « عروة بن أذينة » بيتين من الشعر هما :

قالت « وأبثثها وجدى فبحت به » ... قد كنت عندى تحب الستر ، فاستتر
ألست تبصر من حولى ؟ فقلت لها : ... غطى هواك وما ألقى على بصرى

ولكنى كنت أطالع فى كتاب « شاعر الغزل » للأستاذ الكبير عباس العقاد فوجدته فى صفحة ١٣٢ ينسب هذين البيتين إلى الشاعر الغزلى « عمر بن أبى ربية » المخزومى الذى لم يشتهر بالتنسك والتفقه وإنما اشتهر بالتشبيب ومتابعة النساء فى خلواتهن .

ابراهيم عبد المجيد الترزى

(مهد العرب) للدكتور عبد الوهاب عزام

مهما تباينت آراء النقاد فى مقدار تأثير البيئة فى الأدب فلا مفر لفهم هذا الأدب فهما صحيحا من دراسة بيئته التى أمدته بالغذاء ، وتعهدته بالنمو ، وأحاطته بالرعاية ، واستمد عناصره من مشاهدها ، والأدب العربى لا يزال بعوزه ليسهل هضمه تلك الدراسات التى تتناول بيئاته الطبيعية لاتصال تلك الآثار الأدبيـة ببعض الأماكن ، أو القبائل ، أو الحيوان ، أو النبات ، أو القصص ، مما يعين على استكناه روح البيئة التى ولدت ونشأت تلك الآثار بين أحضانها . فكانت هذه الدراسة الموجزة ، الوافية لمهد العرب عاملا قويا يتكىء عليه طلاب الأدب العربى عامة ، وقديمه خاصة ؛ لأنها تجلو لهم هذا المهد الذى كان له فى حياة العالم السياسية ، والاجتماعية ، والروحية ، والأدبية ، أعظم الأثر ، وبعين الباحث الأدبى على تمثل هذا الشعر واستمراء روحه ، وتعمق مراميه ، والوصول إلى أهدافه ، مما يعجز عن القيام به المعاجم والشروح التى تتعلق بالألفاظ والأساليب ، وهذا الكتاب يقوم على وصف الجزيرة العربية الطبيعى ؛ وأقسامها وأعلام بلدانها ؛ ومحالها ؛ ووصل كل هذا بطرف مما يتصل به من الأشعار والأخبار والأساطير فى غير توسع ولا تعمق ، وذكر فيها أمهات القبائل ومواطنها فتناول بالكلام مهد العرب والجزيرة وأقسامها وما يتصل بكل قسم من بعض الأخبار والشعر ، فتناول الحجاز مولد الاسلام ومبعث النور الذى تتجه إليه القلوب والأوجه كل حين ، ويملأ كل قلب إليه حنين بهذا الروح القوى استلهم — الدكتور — تلك الأماكن التى توحى بأروع الآيات التى تصور بهاء ذلك الماضى الحافل الذى يلقى فى النفس الجلال ، ويشيع فيها الخشوع ، وهكذا تكلم عن نجد ، والأحساء ، واليمن ، وحضرموت ، والربع الخالى ، وعدد سكان الجزيرة فى القديم والحديث ، تناول كل هذا الشتيت المبعثر ، ونسقه عقدا جيلا ؛ بهذا الأسلوب الأدبى الجزل ؛ فكان خير ما يقدم بين يدى الدراسات الأدبية والتاريخية .

محمد عبد الحليم أبو زيد



قصة ألبانية :

المهـــد الذهبي ...

[مهداة للأستاذ الكبير كامل كيلاني]

نقلها الأديبان :

وهبي إسماعيل حقي وإبراهيم خير الله

تتمة

— ٥ —

أسرع محمود إلى فريد في حجرة النوم — بعد أن قابل بيراما بالسيد عفت في حجرة الأضياف — فوجده ما زال مستلقيا في سريره ، فقال له :

— قم ، فقد جاء بيرام .

فقفز فريد من السرير وقال في لهفة :

— وهل أحضر العينة ؟

— ليس معه شيء ، وإن الموضوع قد ارتبك ، فإن الخائن قد أخبر أناسا آخرين .

— وكيف كان ذلك ؟ ألا عليه اللعنة من الله .

قص محمود على فريد ما حدث — منذ دقائق في الشارع من منزله — بينه وبين السيد لطفي وبيرام ، وسرد عليه ما دار بينه وبين شفيق في الليلة الفائتة ، وختم حديثه بقوله :

— إنني بعد أن سمعت إلى شفيق ليلة البارحة في المقهى ، بدأ الشك يتسلل إلى قلبي .

فقال له فريد وهو جاد في استبدال ملابسه :

— والآن ما العمل ؟

— أمامنا مشاكل كثيرة ، كلها يتطلب سرعة الحل .

وكان فريد قد أتم تبديل ملابسه ، فصحب محمودا إلى حيث والده وبيرام يجلسان ، فلما وقع نظره على القروى ابتدره — من غير أن يحييه — بقوله :

— كيف أخبرت غيرنا بهذه المسألة ... ؟

ولم يدعه بيرام يتم حديثه فقد أجابه في سرعة بقوله :

— لقد أخطأت خطأ كبيرا يا سيدي ، ولكن مع الأسف الشديد ، هذا هو الذي حصل .

— ولكنك ، أكدت لي أنني الوحيد الذي أفضيت إلى بهذا الموضوع .

— ولم أكن كاذبا حين قلت لك ذلك يا سيدي .

— إذن ما ذا حدث ؟

— سأشرحه لك كما وقع ، ولك أن تحكم — بعد ذلك — لي أو علي . قبل أن أجيء إليكم ، قابلت شابا أعرفه معرفة سطحية ، وهو طويل الجسم ، حسن الهندام ، جميل المنظر ، يرتدي — في معظم أوقاته — معطفا أسود ، فصاح الجميع بصوت واحد :

— شفيق حامد .

— نعم ، هو شفيق حامد ، ها أنتم تعرفون اسمه . إنني متصل بهذا الشاب — من زمن بعيد — اتصالا غير وثيق . ونحن أيها السادة أناس أغبياء ، لم تصقلنا التجارب ، ومن السهل أن نتأثر بغيرنا ؛ لعدم ثقافتنا في المدارس ، ولقلة درايتنا بأخلاق الناس ، بالأمس قابلت هذا الشاب ، وسألته عن تاجر يبتاع الآثار ، فأجابني أنه لا يعرف أحدا ، ولم أتحدث إليه بأكثر من ذلك ، ولكنه — على ما يظهر — كان ذكيا ؛ فقد ارتاب في أمري ، لأني عندما خرجت من هنا ليلة أمس وجدته ينتظرني في المحل الذي اعتدت النزول فيه كلما جئت إلى المدينة ، ولقد هددني بأنه سيرفع أمري إلى الحكومة إن لم أصارحه . أنا لا أستطيع الكذب ، فقد خفته كثيرا ، وخشيت أن ينفذ وعيده . ولما رأى ذلك مني ، قادني إلى بيته ، ثم تركني فيه وحيدا ، وعاد بعد قليل مع صديق له .

فقال محمود :

— السيد لطفي ؟ فقد تذكر أن شفيقا قد جاء إلى المقهى ،

واستدعاه حينما كان جالسا معه هو وفريد ، فأجابه بيرام فى هدوء واطمئنان :

— لم يذكر اسمه أمامى . ولكنى — إزاء تهديدهما لى — أخبرتهما أننى عثرت — بمحض الصدفة — فى حفرة قريبة من بيتى على بعض نقود قديمة ، ولم أقل لهما أكثر من ذلك ، وقد وعدتهما أن أرشدهم إلى الحفرة ، فإنى ما كنت أستطيع الإفلات منهم بغير هذا الوعد .

فقال له فريد فى حدة وغضب :

— إنك مخطىء .

ولكن السيد عفت — وهو الذى حنكته الأيام — بدأ يتكلم فى هدوء ورزانة فقال :

— إن المسألة — بوضعها الآن — ليست صعبة التسوية ، وإنه يجب البحث عن شفيق ولطفى والتفاهم معهما .

فأمن الجميع على هذه الفكرة ، ثم سأل فريد بيراما :

— ولماذا لم تأت بالعينة ؟.

فتولى السيد عفت الإجابة عنه ، — فقد عرف منه السبب — فقال :

— قد فاض النهر هذه الليلة ، وأضحى من المستحيل الوصول إلى « دومنى » .

وقال بيرام :

— إن الجو جميل فى هذا اليوم ، ونستطيع أن نذهب جميعا الليلة .

فى هذه اللحظة دخل الخادم ، يعلن سيده أن شابين يريدان مقابلته ، فعلم الجميع أنهما لا بد وأن يكونا شفيقا وصديقه .

قال السيد عفت :

— انتظروا سأخرج أنا وحدى إليهما ، وغادرهم إلى حيث الشابان ينتظران . ولكن القروى بدا عليه كثير من الاضطراب وعدم الاطمئنان ، وخاض فى بحر عميق لجى من الأفكار . ثم إن فريدا قال له فى صوت العاتب :

— إنك السبب فى كل هذا الارتباك يا بيرام ! ولولا أنك أطلعت هذين الشقيين على هذا الموضوع ، ما حدث هذا اللغط ، ولا كانت هذه الضجة .

— إننى معذور يا سيدى ! فأنا رجل غير مثقف ، وإن قلبى يضطرب — خوفا وفرقا — عند ما يذكر اسم الحكومة أمامى إننى أضحى بكل شىء فى سبيل أنى لا أقاد إلى دار الشرطة ، وأنى لا أوقف موقف الاتهام .

خفت ثورة الغضب من نفس فريد وأسرع إلى حيث أبوه والشابان ، فوجد شفيقا بجوار المكتب ، يرغى ويزبد ، ويهدد ويتوعد بأنه سيخطر أولى الأمر ، ووجد التاجر يجيبه — فى هدوء لفظ ، وخفوت صوت — قائلا :

— ولكن ذلك فى غير مصلحتك ، وأولى لك وأنفع أن نتفاهم فى جو يسوده الصفاء . فقال شفيق فى صوت أقل حدة :

— أنا أريد قسطى من هذا الكنز .

وهنا تدخل السيد لطفى وقال :

— يا شفيق ! إن السيد عفت أهل للثقة والشرف ، وهو أكبرنا سنا ، وأطولنا تجربة ، فلنترك له هذه المسألة ، يتولى التصرف فيها بحكمته ، ولنا من مشهور عدالته ، وكثرة خبرته ، أكبر الرجاء فى أن يصل إلى كل منا نصيبه فى غير صخب ولا منازعة . فهدأت ثائرة شفيق ، ووقع منه هذا الرأى موقع القبول .

وانتقلوا جميعا إلى حجرة الاستقبال وانضموا إلى محمود وبيرام ، ثم أخذوا يتبادلون الرأى ويتشاورون فى الأمر ، وبيرام يتهم ينظر إلى كل منهم نظرة فاحصة ، فى ثبات ورزانة ، ولا ينطق بكلمة إلا إذا تطلب الموقف أن يقول شيئا . وأخيرا — وبعد طول جدل ومناقشة — استقر الرأى على أن يخرجوا — بعد الظهر — فى سيارة فريد بملابس الصيد ومعداته إلى قرية بيرام وينتظروا فى بيته إلى أن يجن الليل ، فيتسللوا إلى الكهف ، ويحصون بأنفسهم الأشياء الموجودة فيه ، ثم بعد عودتهم يبحثون عن أنجع الوسائل ، وأنجح الطرق فى تصريفها .

وقد اختتم التاجر الحديث بقوله :

— والآن ! يجب أن نتعاهد على أن نعمل متحدين فى إخلاص ، وعلى أن تسمعوا لإرشادى ونصحى ، فتعاهد الجميع على ذلك ، ثم انصرفوا على أن يجتمعوا فى الرابعة مساء وهم على أتم استعداد لبدء الرحلة . ولقد استبقى فريد محمودا ليعاونه على تجهيز السيارة ، وأما السيد عفت فقد بقى مع بيرام ؛ لأنه قرر

بقاء، في البيت إلى أن يعودوا فيستأنفوا السفر إلى « دومن » حيث الكهف العجيب.

ولقد تناول محمود وبيرام غداءهما على مائدة السيد عفت ، ثم توجه محمود إلى منزله بعد الغداء مباشرة ليستبدل بملابسه ملابس الصيد . وما إن وافت الساعة الرابعة حتى التأم الجمع ، لكنهم وجدوا أن السيارة لا تتسع لجميع كلاب الصيد التي معهم ؛ فاقترحوا أن يتركوا كلب لطفي في منزل فريد إلى أن يرجعوا ، ثم أخذوا أماكنهم في السيارة إلا بيراما ، فإنه انتحى بالسيد عفت بعيدا عنهم وقال له هامسا :

— إنني لا أستطيع مغادرة أشقوداره ، قبل أن أدفع دينا صغيرا لتاجر هنا قد وعدته أن أؤديه إليه في هذا اليوم ، وأخاف إن أنا لم أف بوعدي أن يجيء إلى القرية ويرانا هناك ، وحينئذ نقع في ورطة يتعذر علينا الخلاص منها .

فقال له السيد عفت :

— وكم يبلغ دينك ؟

— إنه صغير جدا ، لا يزيد على ستة جنيهات .

فتشكك التاجر لحظة ، لكنه طرد عنه هذا الشك عندما رأى السيارة وبها الشبان ينتظرون بيراما ، وقال :

— انتظر إلى أن أحضر لك المبلغ ، ثم دلف إلى المنزل وعاد بعد قليل وسلم له النقود ، فوضعها في جيبه وعمد إلى السيارة وأخذ مكانه منها ، فانطلقت بهم ، والتاجر ينظر إليهم وهو يخشى أن تلفت كثرتهم الأنظار إليهم .

أخذت السيارة طريقها إلى القرية مارة بسوق المدينة ، وقبل أن يجتازوه رجا بيرام فريدا — وقد جلس إلى عجلة القيادة — أن يقف السيارة ، فإنه سينزل ليؤدي دينا صغيرا — حل موعده — في هذا المكان وأشار إلى محل معين ، فأوقف فريد السيارة ، ونزل بيرام واتجه إلى المحل الذي أشار إليه . فناداه شفيق وقال له :

— أسرع يا بيرام ! لنصل قبل الغروب .

وانتحى فريد بالسيارة في الجانب الأيمن من الطريق حتى لا تعطل المارة ، وانتظروا وقتا غير قصير ، ولكن بيراما لم يرجع فزفر فريد زفرة حارة وقال :

— لست أعلم ، ما سبب هذا التباطؤ !

فقال السيد لطفي :

— أسرع إليه يا شفيق ! واستحثه على العودة بسرعة . فنزل شفيق وقصد المحل الذي دخله بيرام ، لكنه عاد مسرعا وهو يصيح !

— إنني لم أجده هناك . فاستولت الدهشة على الجميع ، وتملكتهم الحيرة ، وقالوا :

— وإن أين ذهب هذا اللعين ؟ عد ثانية يا شفيق ! وسل عنه صاحب المحل . فرجع شفيق ، ولما رآه الرجل قال له :

— عمن تبحث يا سيدي ؟

— أبحث عن القروي الذي دخل هذا المحل منذ قليل ، فقال الرجل مبتسما :

— أظنك تبحث عن بيرام .

— نعم أبحث عنه ، ولكن من أين لك معرفة هذا الرجل ؟.

— كيف لا أعرفه ، وهو أكبر شيطان ، وأذكى محتال أنجبته جبالنا . إنك لو علمت كيف لعب بكبار التجار ، وابتز أموالهم ، لاستولى عليك العجب . إن الوقت لا يتسع لأقص عليك أعمال ذلك الداهية المغامر . ثم حانت من الرجل التفاتة إلى السيارة في جانب الطريق ، فانسعت الابتسامة على شفتيه وقال :

— يلوح لي أنه قد أوقعكم في شباك حيله . وفي هذه اللحظة انضم إليهما السيد لطفي ، فقد استبطأ شفيقا فجاء يستعجله ، وقد سمع الرجل يقول لشفيق :

— إن هذا الشيطان يلج على التجار بيوتهم ، في ساعات مبكرة ، ويزعم لهم أنه اكتشف — مصادفة — آثاراً قديمة ، وكنوزاً عظيمة ، ويبتز نقودهم على حساب هذا الكشف ...

جد السيد لطفي في مكانه حينما سمع هذا الكلام ، فقد انماعت الآمال التي بناها على أساس هذا الكنز في حرارة الحقيقة المؤلمة ، لكنه لم يلبث أن انفجر ضاحكا حتى كادت أنفاسه تنقطع ، فقد تذكر ما حدث منذ الصباح الباكر أمام منزل السيد عفت وفي داخله . ثم عاد مسرعا إلى رفاقه في السيارة ، وأكد لهم أن بيرام غير موجود ، وأنه محتال كذاب ، وأعاد عليهم ما سمعه من

الرجل ، فاصطبغ وجهاهما بحمرة الغضب وضاقت فى عينيهما الدنيا ، وامتلأ قلباهما بالحزن ، وأخيراً لم يجدوا مناصاً من العودة إلى المنزل يجررون أثواب الخزى ، وتركوا شفيقاً يواصل البحث فى السوق عنه .

سمع السيد عفت صوت السيارة أمام المنزل فخرج مسرعاً فرأى السيد لطفى وفريداً ومحموداً ينزلون منها فسألهم فى لهفة :

لماذا عدتم ؟ ماذا حدث ؟ أين بقية الرفاق ؟ .

فاستغرقوا جميعاً فى الضحك وقالوا :

— لم يخطر لنا على بال أن قروياً ساذجا ، لم يذهب إلى المدرسة ولم يقرأ شيئاً عن المغامرات يستطيع أن يخدعنا إلى هذا الحد ، ثم شرحوا للتاجر كل ما جدّ بعد أن فارقوه . وكان كل واحد منهم يأخذ بنصيبه فى الشرح والتفصيل ضاحكا . أما السيد عفت فلم يستطع أن يتمالك نفسه وقال مغضباً :

— يجب البحث عن هذا السافل حتى نقبض عليه ، ونسلمه للشرطة ، إنه أخذ منى نقوداً ، وكذلك أخذ من فريد .

— وقال السيد لطفى :

— لقد أعطيته أمس جنيهاً ذهباً ، وكذلك فعل شفيق ، وإن النقود لم تكن لنا ، فقد اقترضناها .

وقال فريد — موجهاً حديثه إلى والده : —

— أعتقد يا والدى أننا لن نستطيع أن نمد له يد السوء ، فإننا نعجز أن نثبت ضده إدانة يؤاخذ عليها القانون ، ويبدو لى أننا لم نكن أول من وقع فى فخه ، وأنه مثل هذا الدور مع كثيرين .

فأجابه والده — وهو يكظم غيظه — بقوله :

الواقع أننى لم أصادف فى حياتى كلها قرويا له ذكاء هذا الرجل ، فقد أتقن حيلته ، وحملنا على أن نؤمن إيماناً عميقاً بكل ما يقول ، فقد كان بريق عينيه ، ونبرات صوته ، ينفذان إلى القلب فيمسحان عنه ما يكون قد علق به من شك .

وقال محمود :

— لقد عرف هذا الرجل كيف يلقى فى روعنا جميعاً أن ما جاء به حقيقة لا يشوبها خيال . فعباراته كانت دائماً هادئة رزينة ، خالية ، من المبالغة والتنميق ، وإن إجابته — فى غير ارتباك — على ما وجهته إليه من الأسئلة جعلتنى أشعر بالفرح يغمرنى من منبت شعرى إلى أخمص قدمى ؛ فقد أيقنت أن الحظ قد ابتسم لنا ، وأن الدنيا قد أقبلت علينا ، وما خالجنى شك أن هذا الرجل يستطيع أن يتفنن فى الكذب إلى هذا الحد .

واضطر السيد عفت — مع ما كان يحس به من حزن يعتلج فى قلبه — أن يجارى الشبان فيما هم فيه فطلب قهوة للجميع وعطف بهم إلى حجرة الطعام واستداروا حول المائدة وأخذ كل منهم يقص على الباقين ما كان قد اعتزمه من المشروعات على أساس هذا الكنز ، فقال محمود لفريد مازحا :

— وهكذا بقيت معاهدنا — يافريد — فكرة حبيسة فى نفوسنا لم تتنسم نسيم الحقيقة ، ولم تأخذ مكانها اللائق بجلالها فى عالم الوجود . ثم أردف بعد صمت لم يدم طويلا . والله ياسادة ! لقد كدت ليلة أمس — بعد أن طار عنى النوم — أن أقوم إلى مكتبى فأحبر قصيدة عامرة فى وصف ذلك المهد الذهبى الذى حرك بيرام فى قلوبنا الشوق إلى رؤيته ، ولكنى — تحت تأثير الإعياء — فضلت الانتظار ريثما أراه ليكون الوصف أتم وأشمل .

أما السيد لطفى فقد اعتدل فى جلسته وشرع يقول :

— تصوروا أننى قضيت ليلة أمس بين لذيذ الأحلام ، ومعسول الأمانى ، وكان أول شىء فكرت فيه — استغلالا لهذا الكنز — أن أسترد — بأى ثمن كان — قصرنا الذى ألجأتنا الضرورة إلى بيعه — وهنا سالت على خديه عبرة لم يستطع ردها — واستمر يقول : ولم يكد ضوء النهار يشيع فى الكون حتى أسرعت إلى هذا المكان وبى شوق كثير لرؤية القصر ، ولقد مررت ببابه كثيراً ، فناجيته أحرّ مناجاة ، وإنه ليدور بنفسى آنذاك أنه لن يمضى أكثر من يومين ثم نعود إليه ، ونسعد مرة أخرى بسكناه ، ونمرح فى جنباته ونلبسه حللا من الفخامة ليتناسب مع عهدنا الجديد ... كم رتبت من حفلات الابتهاج باستعادة مجدنا القديم ، واسترداد عزنا الدابر . ثم التفت إلى محمود وقال : ولقد رآنى محمود وقتئذ . فقال محمود :

— لعل ذلك حينما كنتُ خارجا من هنا قاصداً إلى المدرسة قبل أن تقابل بيراما .

— نعم ! وإنى لم أكن أعلم أن بيراما سيحضر فى هذا الوقت ، فقد كنا على موعد معه بعد الظهر لنرحل إلى قريته سويا ويرشدنا إلى الكهف . وإنما الذى دفعنى إلى الخروج فى ذلك الوقت البكر هو رغبتى فى أن أرى قصرنا وأناجيه على ماسمعت ، ثم صمت فصاح الجميع :

— أما إن بيراما لأبليس !

وفى هذه اللحظة وصل شفيق ، وجعبته ملأى بشتى الأخبار وأخذ فى سردها واحداً واحداً ثم ختم حديثه بقوله : فها أنتم أيها السادة — بعد أن سمعتم الكثير من أعمال هذا الرجل — ترون أننا لسنا أول ضحاياه ، فقد سبقنا عدد ليس بالقليل من سراة أشقودراه وكبار التجار فيها . فقال فريد :

— إننى لو رأيت بيراما بعد هـذا سأعانقه بحرارة وأقبل جبينه ، اعترافا بفطنته وسرعة خاطره ، وسأقول له : مرحى ! مرحى ! يا أذكى من أنجبته القرى !

وقال السيد عفت ضاحكا ، محاولا أن يستر ما يحسه من ألم وغضب :

— من الرأى أن تكتموا ما حدث لنا عن الناس جميعاً ، حتى لا يفطن إلى بيرام أحد ، فيقع غيرنا فى مثل ما وقعنا نحن فيه ، فاننا سنشعر من غير شك عند ذلك بشيء من التعزية تخفف من مرارة الخيبة التى ذقناها من يد هـذا الرجل ولسانه ، ...

وقال محمود أخيراً :

— الحق يقال : إن بيراماً ليس من الرجال العاديين . فهو فذ بين اللصوص ، محبوك الحيلة ، إنه لا يسرق وإنما يبيع أحلاماً لذيذة جميلة ، تنتقل بالإنسان إلى عالم ملىء بالآمال والسرور والسعادة . إن النقود التى استطاع أن يسلبها منكم لهى ثمن زهيد جداً لما أضفاه علينا من سعادة يعجز الوصف عنها . فقد أرجعنا جميعاً بهوادة ولطف شعرنا معهما بلذة ليس فى مقدور الإنسان أن يأتى على وصفها — فى مهده ... الذهبى ... الخيالى ...

وهبي اسماعيل حقي وابراهيم خير الله